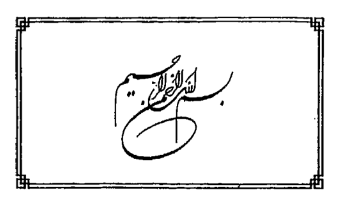
لينا هويان الحسن

معشوقة الشمس



الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة





دمشق ـ اوتستراد المزة. ص.ب: ١٦٠٣٥

هاتف : ٦٦١٨٠١٣ ـ ٦٦١٨٩٦١

تلفاكس : ٦٦١٨٨٢٠ ـ برقيا : طلاسدار

رئيس الدار

لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية



الطبعة الثانية ـ ٢٠٠٠ م

لينا هَوْيان الحسن



طبعة مزيدة ومنقحة



ا ل إ هـ د ا ء

إلى والدتي ووالدي

اللذين علماني معنى الحياة

ورسما لي طريق المستقبل المشرق.

عربون محبة

ووفاء وإخلاص.

لينا هَوّيان الحسن

❀ ❀

أيَّتها الشَّمس لِمَ تطئين أديمَ الصحراء بهذه القسوة ؟
لِمَ كلُّ هذا اللهبُ ؟
من ذا الذي تبتغين عذابه ؟
يا من تتولين رمي الصحراء بسهام من نار
كيفَ يسعكِ أن تعذبي معشوقتك ؟
سعَّرت وهجها نحوي ورددت :
أوليست الصحراء معشوقتي ؟
ومن يعشقِ الآخر ألا يسطو على كل حبة منه
فلا يخشينَّ عليها لا إنسٌ ولا جان فلن تسحقها لمساتي
ولن تلومني على شدة وهجي .

* *


٢/١٠/١٩٩٨

المقدمة

من قلب الصحراء تلك الأرض الموطوءة أبداً بأشعة الشمس المذهبةِ، ومن أفواه العجائز وما لفظتهُ ألسنتهم من قصص الماضي كانتْ سيرةُ أحد الأمراء لم تبارح بعدُ ذاكرتهم العتيقة، وكانت قصته أكثر ضراوةً من أن يبتلعها الزمان.

كان أميراً لإحدى أكبر العشائر التي كانت تتنقل عبر الصحارى والبوادي الشامية. وهو ككل بني البشر أخطأ وأصاب... تألم وفرح..

وأكثر ما تنبىء عنه قصة حياته أنه لم يسمح للعادات المتعصبة والقيم القديمة التي من شأنها أن تقيِّد أفعال الإنسان في ذلك الحين بأن تقبع عند بوابات روحه كي تومىء له أي درب يسلك فكانت رحابة روحه بمثل رحابة البوادي. وبشجاعة حاول أن يمحق تعاسة بعض أقداره التي انسلت إلى حياته على نحو يجلب العجب.

وتمرد غير مرة فبدا تمرده كمشاكسة لمن حوله، ولم يتوان عن سلوك الطرق الماكرة لأجل سعادته وأباح الكلام لاختلاجات قلبه ومات من دون أن يسمح لقلبه أن يتجعد. ومن أحداث حياة هذا الأمير استوحيت مجريات أحداث روايتي وقد استندت إلى أرض الواقع في ذكر الأماكن وتعمدت تغيير أسماء العشائر والأشخاص.

وتجري أحداث روايتي في القرن الماضي حيث كانت الصحراء أرضاً تهتز بالأهواء المجنونة وتتعارك فيها الضغائن بحيث يصعب أن يسودها الوئام أو الوفاق والود فهي كثيراً ما تكون فريسة الأحقاد التي تشتعل بسبب كلمة.. هذا عدا عن الروح القبلية العنيفة والنزعة الفردية غير المروضة.

وأكثر ما يجب أن يكون بالحسبان هو دور الأتراك الذين عبثاً حاولوا السيطرة على العشائر البدوية فراحوا يتفننون في حياكة المؤامرات والدسائس التي كان من شأنها أن تبقي العشائر مشغولة بالشجار والتناحر فيما بينها.

والأمير سمهر الجحجاح هو بطل روايتي
فتراه من يكون ؟

لينا هَوْيان الحسن

دائماً انطلقي يا هبات الريح
وتعالي يا غيمات المطر ، ولا تتواني ،
وصمتاً يا رعد شباط
أيّة بركة نلت يا معشوقة الشمس ؟
حين اجتاحك الربيع ونفث زهراً وفاه عطرا
وأقبلي يا أسراب الإوز ورويداً رويداً امض
فالربيع غير عجول
واصدح أيها الطير ولا تهيب فالصقيع نام ملء الجفون
ويا أيتها الغزلان أنت يا عرائس الصحراء اركضي
حيث يروق لك فقد اندس الشتاء وكتم برده
وحاك لك الربيع أحلى السجاجيد وسكب
كل ما في جعبته من أزاهير ارتوى النسيم بمسكها
ترهدن أيها الحجل إلى حين يلوح طيف حزيران
ويلج بوابة الصحراء
وتأود يا شقيق النعمان قبل أن يهجع الربيع
ويدنو حر الصيف كالنيران .

***

كانت البادية قد بلغت ذروة الحسن وقطعت على دروب الجمال أشواطاً بعيدة بعد أن أبدعت أنامل الربيع في تزيينها وتتويجها بألق خرافي ولبّى آذار كل ما سألته إياه الأرض من اخضرار فخضبها بالحشائش الكثيفة الريانة وقد احتشدت بينها الزهور البرية النهلى .

ومما زاد في زهوة الصباح وبهائه أغاني هازجة لطيور غريدة مترنمة تنشدها ببهجة فيها رنين تفاؤل صريح .

بينما الريح تحمل نغمات زقزقية لطيور محلقة في الأفق البعيد ومن حين لآخر يتردد صدى لصيحة الهدهد الشهيرة يطلقها بملء حنجرته متأثراً بحلاوة البادية التي تتوهج جمالاً ... نعم جمالاً فكل ما فيها يستحق أن تطلق عليه كلمة جميل هذه الكلمة التي كانت دائماً وستبقى أبداً تحتل مركز اللبّ من أرواحنا .

وسط كل هذا السحر وتلك البراري الفسيحة والامتدادات الطليقة العامرة بضياء لا تحده حدود ووهج غامر تتفتح له الروح وتجتذب القلوب نحو الاستمتاع والحبور تقدم الأمير سمهر على فرسه كهرمان التي بدت بهمة عالية وكأنها تحسست جمال الفلا من حولها ونَقَاوَة الهواء الذي تتنشقه .

أما فارسها فقد بدا عليه أيضاً المزاج الرائق وقد تمنطق بخنجر موشّى بالذهب وأمال عقاله على جبهته بشدة معلقاً عينيه بالأفق البعيد ، متفرساً بكل ما يبدو متحركاً راجياً أن يرى قطيع الغزلان المنشود فهذا اليوم مناسب تماماً للقنص والصيد ..

هكذا جال في خاطر سمهر وهو محلق إلى بعيد بعينين واسعتين يظلهما حاجبان ثخينان صقيلان ويتلألأ في غوريهما لون أخضر زمردي ينبئنا أنه رجل يستجيب لوثبات القلب وخلجاته المتأججة وقد تعود الاسترسال مع عاطفته ومتابعة أهواء نوازعه .

أما أنفه فهو أنف مستقيم ترتفع نهايته إلى أعلى بحيث تدل على كبرياء صاحبه وعناده وحبه لذاته وذلك يعني أنه شخص لا يضحي من أجل أحد .

وفمه بزاويتين مائلتين إلى أعلى يشيران إلى حبه للسخرية من الآخرين وأنه شخص واثق بكلماته وهناك ثلمتان صغيرتان تحت زاويتي فمه تمثلان تحفظه وتكتمه بل ورفضه للثقة بالآخرين لأنه لا يؤمن إلا بنفسه . أما ذقنه فهي ذقن جبارة مقتدرة مربعة تشير إلى صرامة صاحبها وبراعته في القيادة وتؤكد أن هذا الشخص يستطيع أن يمارس سلطة ضخمة على الآخرين ، وأنه شخص يحرص على تنفيذ مبادئه الخفية التي يضمرها في نفسه .

تقدم مناور على حصانه الأسحم وأصبح بمحاذاة سمهر واضعاً إحدى يديه فوق حزام جلدي مزين بزخارف فضية براقة أضفت على هيئته بهاء يشبه بهاء النساء المتسربلات بالحلي الفضية .

ابتدأ مناور بالكلام :

ــ ها يبدو أن كهرمان وفارسها هذا اليوم بمزاج صافٍ

رد عليه سمهر من دون أن يلتفت إليه :

ــ بلى أنا وكهرمان مبتهجان لكن هذا لن يدوم إذا ما تأخر ظهور الغزلان . وبسرعة قال مناور مخمناً :

ــ لنتقدم قليلاً إلى الشرق تجاه تلك الغدران والحوايا الصخرية حيث الماء السارب(*) هناك عند ذاك الوهج البلوري .

ــ أنا لا أريد قطا ولا حجلاً أريد غزلاناً قال الأمير هذا بشيء من الحدة ونفاد الصبر لكن مناور تابع كلامه من دون أن يكترث لنفاد صبر الأمير وكأنه معتاد على لهجة صديقه هذه :

ــ إن صح تخميني فإننا سنجد الغزلان شرقي تلك الرجم الصخرية .

ــ لك هذا يا صديقي ولكن إن خانتك فراستك سأطلق عليك الباز شاهباز ليمزق أذنيك .

قال الأمير هذا بنبرة تتوعد وتتهدد وأمر البازيارية(**) الذين كان يقودهم ابن أخيه الفتى رديني بالتوجه إلى حيث خمن مناور وجود الظباء .

تقدم الجميع على ظهور خيولهم عبر أرض مخددة بمسايل مائية نحيلة كأنها حفرت بأيدٍ خبيرة وتكلم مناور من دون أن يحول بصره عن وجه الأمير كما لو أنه ينتظر التعابير التي ترتسم على وجهه عندما يسمع ما سيقوله :

ــ تذكرت خبراً سمعته يوم أمس .

(*) السارب : أي الماء الذي يسيل على وجه الأرض مشكلاً رامات مائية .

(**) البازيار : هو الرجل الذي يهتم بتدريب الباز على الصيد .

رد سمهر بشيء من اللامبالاة :

ــ هات ما عندك .

ــ إنه الأمير مشعل صديقك القديم وسيد عشيرة الوهبان .

ــ ما باله .

ــ سمعت أنه رزق بصبي أطلق عليه اسمك .

ــ أأسماه سمهر ؟

ــ نعم .

انفجر الأمير ضاحكاً وبصوت عالٍ قائلاً :

ــ ياله من أمير مشاكس كيف تجرأ على أن يسخر من أفراد عشيرته ويطلق اسمي على ابنه البكر كيف تجاهل العداوة القائمة بين عشيرتينا بهذه الوقاحة ، أتم كلامه وعاد للضحك وكأنه لا يصدق ما يسمع في حين قال مناور

ــ يبدو أنه لم ينسَ صداقتكما القديمة .

ــ أجل أجل أظن ذلك ..

قال سمهر هذا بنبرة مبتهجة وأكمل حديثه مع نفسه ... نعم .. نعم .. قتلت حصانه مرتين ولم أقتله وهو الوحيد الذي يعرف ذلك .

كانت الأرض أمامهم تزخر بألوان الأزاهير البرية فمن الأحمر المتوهج إلى القرمزي المشرب بالبنفسجي هذا عدا زهر البختري(*) الذي فاح شذاه بشدة .

(*) البختري : أو ما يسمى بالغرنوق الأزرق .

تكلم مناور :

ــ إن الربيع هذا العام لم يبخل على الصحراء بورده بل بلغ حداً بعيداً بحيث أنه دبّجها بشتى الألوان انظر كأنها يواقيت وعقائق .

رد الأمير بشرود وكأنه يتذكر شيئاً ما :

ــ في المدن يضعون الأزهار في أوانٍ متلألئة براقة يسمونها مزهريات حتى الأزهار يسجنونها . قال هذا وراح يسلي نفسه بسماع نغمات الطيور تحملها الريح برشاقة لتسكبها في أذنيه .. تكاثرت في المكان صخور رمادية فيها كدرة خضار مع بقع بيضاء مائلة للغبرة .

وفجأة تراكضت الكلاب «السلوقية» إلى الأمام وعلى رأسها كلبة سوداء خبيرة بالصيد اسمها نيرو .

صاح رديني :

ــ عماه لا بد أن الكلاب أحست بالغزلان . وما هي إلا لحظات حتى هتف العبد حبشان بأعلى صوته :

ــ هناك ساقة(*) غزلان .

تنبه الركب كله وفعلاً بدت الساقة قريبة منهم تركض شمالاً تاركة وراءها موارد الماء .

أسرع كل من الأمير ومناور ولحق بهما رديني ومعه خمسة من البازيارية على يد كل بازيار حط باز متأهب لعمله .

(*) الساقة : القطيع .

صاح الأمير :

ـ أرسلوا المقدم(*) .

والمقدم هو الباز شاهباز باز أحمر المنسر والرجلين وهو المفضل لدى الأمير لأنه أفره البزاة وأطيرها وأشطرها وأمتنها بنياناً أرسل شاهباز وقد تفجرت الحماسة بجناحيه وحلق بعنفوان فوق ساقة الغزلان التي راحت تركض وراء النجود(**) طالبة الخلاص وتبتغي الحرية .

كانت النجود تجري بسرعة كأنها تحلق بالبرية وشاهباز يحلق فوقها بالسماء.. راح يضربها بحدة محاولاً إنهاكها في حين كانت هي تناطح منسره بقرنيها وتحاول التملص من مخالبه لكن شاهباز كان يناورها بمهارة فائقة وهمة متزايدة كان يعمد إلى تهديم عزيمتها وتفتيت إرادتها في حين يزداد اضطراب حركتها وتغير قفزاتها السريعة الملحة رافضة أن تخضع للباز وتريد أن تمضي إلى أبعد فأبعد ولكن سرعان ما توترت وثباتها وتباطأت حركتها وفي حركة مفاجئة من شاهباز أخذ يضربها على أذنها مما أجبرها على المناورة في مكانها . وهنا تعاظمت حيرة بقية الغزلان التي هيمن عليها الاضطراب . فقد كانت تركض في كل الاتجاهات وما تلبث أن تعود إلى حيث كانت تتعارك النجود مع الباز كأنها تعقد العزم على الانطلاق حيناً وتعود لحيرتها حيناً آخر . وفي هذه الأثناء أرسل العون من بقية البزاة على الغزلان الحائرة فراحت البزاة تدور في الهواء كحلقة والكلاب تدور تحتها حتى نزلت البزاة على الغزلان وانتقى

(*) المقدم : أي الباز أو الصقر الذي يكون أول من يرسل على الطريدة ثم يتبعه العون من بقية البزاة .

(**) النجود : وهي الغزالة التي تقود قطيع الغزلان .

كل باز غزالة وراح يضربها على أذنها والكلاب تعينها أيضاً. وفجأة تراجعت كل البزاة ورفرفت بأجنحتها مطلقة الصفير وعادت يسبقها رنين أجراسها والكلاب فعلت مثلها فقد ظهر عقاب غربيب (*) ضخم وحلق منخفضاً حيث كانت تدور المعركة بين البزاة والظباء وبقي شاهباز يمعن في مهاجمة النجود رغم أنها بلغت درجة قصوى من الإعياء لكنها غزالة عنيدة فلم تيأس.

ـــ إنه عقاب بؤساً له لِمَ اتفق ظهوره الآن؟

بهذا صاح سمهر بحدة وهو يرقب شاهباز كيف يواجه العقاب وحده فالعقاب يريد الطريدة منه مما اضطره إلى أن يترك الغزالة محاولاً مناورة العقاب لكن لا فائدة فقد حام قليلاً وتصرف بحكمة تاركاً العقاب والغزالة التي وجدت فرصة ذهبية في الوقت الذي أخذته المناورة القصيرة التي جرت بين الباز والعقاب وفرت الغزالة رغم جراحها وآلامها وراحت تجري تتبعها بقية الغزلان فالآن ليس في إمكان أحد أن يرسم الحدود التي يباح ركضها فيها ستقود قطيعها الذي يثق بها إلى بر الأمان إلى الأرض البعيدة حيث لا تدركها الأبصار ثم تموت لأن جراحها حتماً ستقتلها.

ـــ أي شاهباز كفاك مباهرة أيها الباز المتبجح وأنت أيها العقاب الأسود عليك تحاشي العجرفة والمباهاة فقد فازت النجود الجريحة.

(*) غربيب: أسود.

قال مناور هذا بصوت عالٍ جداً كأنه يريد أن تسمعه البادية كلها كذلك يريد أن يغيظ الأمير الذي كان يراقب بصمت الباز شاهباز الذي عاد إلى الركب وأخذ يحوم فوقه وقد بدت عليه علائم العصبية قبل أن يحط على يد بازياره .

وجاءت الكلاب تعدو باضطراب واضح وأقبلت الكلبة نيرو تدور حول الأمير وفرسه .

تكلم مناور مخاطباً نيرو :

ـــ أي نيرو أراك لا تهزين ذنبك فرحاً كعادتك ومالك توطئين رأسك السحكوك(*) هكذا ؟!

لم يسمعه الأمير لأنه كان مستغرقاً في بصره يرقب ساقة الغزلان وهي تقترب من الأفق البعيد ، ثم استدار بفرسه وكأنه عقد العزم على شيء ما وصاح بحزمٍ بالغ .

ـــ لنعد إلى المضارب لا صيد اليوم .

اعترض رديني بإلحاح على قرار عمه لكن لا فائدة وأصرَّ الأمير على العودة رغم أن النهار في أوله .

ـــ يبدو أن الحظ الحسن أصابته سنة من النوم وأثقل في نومه لهذا اليوم .

قال الأمير هذا بلهجة تزخر بالخيبة . وهتف مناور قائلاً :

ـــ جميل أن أسمع هذا الكلام يتفوه به أعند رجل عرفته الصحراء .

(*) السحكوك : البالغ السواد .

ـــ حسناً ، حسناً أنا عنيد والحظ سواء أكان جيداً أم سيئاً فهو عنيد لذا على أحدنا أن يتراجع .

ـــ ومن أين هبطت عليك كل هذه الحكمة فمنذ ثلاثة أيام فقط كنت ستفقد حياتك نتيجة لعنادك وأصررت على دخول دير الزور لأجل فرس أخيك جوهر رحمه الله ولا تقل لي إنك أخذت درساً ولن تعاود الكرة فلن أصدقك يا عزيزي الذي لا يفوت مناسبة من دون أن يجازف بروحه .

ـــ لا أدري هذه الحياة متى ستكف عن إعطائنا الدروس ومتى ستتخلى عن إظهار عيوبنا وإجبارنا على الندم إننا دائماً مرغمون على الإحجام عما نريده وإعادة النظر بما ترتاح له أرواحنا .

ـــ وهل روحك الفاسقة لا ترتاح إلا للمغامرات العنيفة المميتة ؟

ـــ هذه طباعي والمغامرة جزء من عاداتي .

ـــ ليتك تتحرر منها .

ـــ هل يتحتم عليَّ مقاومة مزاجي وسجيتي إنك تطلب إذابتي عندما تريدني أن أتحرّر من عاداتي ولو فعلت هذا لجثمت كل قساوة الحياة على صدري .

ـــ إذاً فليجثم شبح الموت على روحك هذه .

أتم مناور كلامه بحدة واندفع بحصانه يعدو وراء الكلاب التي راحت تطارد أرنباً وانبرت تتدافع وتتخاصم على الأرنب بنباح غاضب متحمس . تبعه رديني بحماسه المعتاد في حين بقيت كهرمان تسير بخطا متكاسلة كأنها لا تريد أن تزعج فارسها الذي كان مستغرقاً في أفكار كثيرة ... فقد عاد ليتذكر ما حدث في دير الزور .. لكن كيف يحدث

هذا ؟ إنه من النافع أن نفطن إلى ما يمكن أن يأتي من أحداث على أيدي أناس تافهين تفاهة عجيبة إنهم فئة منحطة علينا أن ننظر إليها من عل .. هكذا حدث سمهر نفسه إلى أن قطع عليه صمته مناور الذي عاد مبتهجاً لأنهم أمسكوا بالأرنب من دون عناء.. وخاطب الأمير قائلاً :

ـ عار علينا إن لم نؤمّن غداءنا لهذا اليوم ؟

ثم أردف يقول كأنه قد خمن ما يفكر به صديقه :

ـ ألن تسعى للانتقام من السافل عرار ؟ هل ستتركه ينجو بفعلته ؟

ـ ربما أن قسماً كبيراً مما ينبغي عمله هو أن ننسى أمثال أولئك المنحطين ولا نلقي لهم بالاً .

ـ ليس هذا من عادتك

ـ إذا أردت الانتقام سأنتقم من عشيرة الوهبان كلها وهذا ما لا أريده .

ـ هذا الرديء كاد أن يوقع بك بيد الأتراك لولا حكمة الله ، وبالشدة لؤمه كيف استطاع خداعنا وعرف أنك ستخاطر بحياتك لاسترداد فرس أخيك بل أكثر ما يحيرني كيف علم أن الفرس بحوزة سالم باشا ؟ إن أمره رياب كان عليك أن تدرك ذلك .

ـ وما يدريني أنا بالنوايا الخبيثة التي تكمن وراه كلامه .

ـ لا بد أن له أكثر من شريك في هذه الحيلة وإلا كيف عرف أي طريق ستسلك مما أتاح للأتراك فرصة رائعة كي يحضّروا لك الاستقبال اللائق .

ـ كنت معتمداً على أن يكون الحاكم الجديد للدير سالم باشا أفضل من سابقه زهدي باشا .

ـــ قد سمعت أخباراً تؤكد أن شبلي باشا والي حلب الذي يتوق لأسرك تربطه علاقة وثيقة مع الحاكم الجديد .

ـــ شبلي باشا هذا الوغد لو تمكن من أن يمسك غيوم السماء فإنه لن يتمكن من إمساكي .

ـــ لا تكن واثقاً أيها الأمير هؤلاء الأوغاد مخادعون وسفلة ولن يتورعوا عن القيام بأي شيء فمنذ أيام استغلوا عداوتنا مع الوهبان وتمكنوا من جرك للدير .

قطع عليهما رديني الذي اقترب من عمه على حصانه الرمادي يريد أن يذهب لقنص الطيور بصحبة البازيارية والكلاب ، وافق سمهر بعد أن نبهه على أن يبقى تحت بصره ولا يبتعد كثيراً .

استأذن رديني من عمه بمرح زائد وراح يعدو على ظهر حصانه تتسابق أمامه الكلاب رافعة أذيالها التي لا تتوقف عن هزها ويتبعه البازيارية والغلمان الذين معهم عدة الصيد من فؤوس وكلاليب تصحبهم كركبة ونخير وحمحمة وانداحت المجموعة في دائرة واسعة وسرعان ما ابتدأ دق الطبول « لإجفال » الطيور والأرانب .

ترجل سمهر عن فرسه وتركها برعاية العبد حبشان وفعل مناور مثل ذلك وجلسا بتكاسل على بقعة من الأرض مخضرة زينتها أزهار بساق طويل وبلون أحمر قانٍ كانت تتثنى وتتغايد متجاوبة مع نفحات النسيم الدقيقة . وعلى صخرة قريبة من البقعة التي اضطجع عليها كل من سمهر ومناور جثمت قبرة تطلق من حنجرتها نغمات قصيرة تشبه نغمة الهدهد . لبثت قليلاً ثم شرعت في الطيران كاشفة عن الطراز المدهش لذلك التناوب المتناغم ما بين الأسود والأبيض للون جناحيها .

قطف سمهر زهرة بلون أحمر ساطع كانت قريبة منه وراح يداعب وريقاتها الناعمة غارقاً في أفكاره المزدحمة في حين شردت عيناه تراقبان فرسه كهرمان التي اقتربت من حفرة قائمة بالصخر تجمعت فيها مياه الأمطار وراحت تشتف منها بهدوء وقد أحنت عنقها المقوسة وصدرها العريض والمتسع ورأسها الجميل الصغير وقد انسدلت غرتها الشقراء الحريرية وغطت جبهتها العريضة التي تزينها بقعة بيضاء تشبه النجمة وأجمل ما فيها عينان واسعتان براقتان داكنتا السواد يشف عنهما وميض الأصالة وتسكنهما حماسة لا تعرف الفتور تكلم مناور وفتح الحديث كعادته :

ــ لماذا لم يرافقنا عاطر ؟

ــ قد عرضت عليه المجيء معنا لكنه تذرع بأنه مشغول، إنه يجد صعوبة كبيرة في التوفيق بين وفائه لي وبين صداقته لابن عمي مزود .

ــ وما قصة الشجار الذي كان بينك وبين مزود في يوم أمس .

ــ في يوم أمس جاءني مزود كعادته طالباً يد أختي شميم، وكان ردي عليه كالعادة بأن شميم لا تريد الزواج الآن، لكنه هذه المرة ثار وقال بصوت عالٍ بأنه يعرف أن شميم تعشق رجلاً آخر وأنه لا بد سيقتله فطردته بعد أن كدت أن أقتله لولا تدخل أمي يا له من رجل خسيس كيف تجاسر لسانه القذر على اتهام شقيقتي علناً بشيء كهذا وإني أتساءل إلى متى سأتحمل عناده وحماقته .

ــ لشد ما تعجبني تلك المحبة الكبيرة التي تكنها لشميم في حين أنجبتها أم أخرى .

ــ ربما أني تأثرت بحب أمي لها فقد رعتها منذ توفيت أمها ولم تعاملها يوماً كزوجة أب كما أن شميم فتاة هادئة تلمح في عينيها نبلاً لا نهاية له .

ــ جميل أن تتمتع بمثل هذه المزايا رغم أن الوهبان هم أخوالها .

ــ فلنقل أنها تشبه ابن خالها الأمير مشعل فهو أكثر ما يميزه أنه صاحب أخلاق نبيلة .

قال سمهر هذا ورمى بالوردة التي كانت بين يديه بعيداً كأنه تذكر شيئاً مثيراً للغضب وتابع كلامه بصوت مفعم بنبرات التمرد :

ــ ثم تخيل ما فعله خالي الهبرج فبعد أن رفض أن يزوجني فاطم وزفها رغماً عنها إلى صديقي جراح من دون أن يدري جراح بأن العشق يوشج بين قلبينا وهاهو خالي المقيت يرسل إلي رسولاً يطلب مني نجدته في حربه مع عشيرة الشملان .

ــ إنها ذكرى فاطم إذاً .

ــ وهل تظن أن ذكراها بارحت مخيلتي .. إن حبها في قلبي وتد مغروس وستبقى فاطم خفقة ألم ونفثة شجن لا تهدأ .

ــ لكن ياعزيزي ليس من الحكمة أن تبقى مغرماً بهواها فنحن لا نستطيع أن نحطم ما هو مفروض علينا من الخارج .

ــ مالك تتكلم كالوعاظ العجائز وهل هذه الحكمة تفترض أن يكون قلبي كصخرة صماء باردة .. أواه هذا القلب المسكين الذي تحف به الأسنة لا يملك حقاً إلا في حدود جزء صغير منه وهو لا يزال آخذاً بالتقلص والضمور وملزماً بالتراجع .. ويالهذه الحياة تصر على أن تحملني أكثر مما أحتمل .. وفاة أبي ثم مقتل أخي جوهر الذي

فجعت به ثم تكللت مأساتي بأن تزوج جراح من فاطم وشقيق أمي اللئيم يظنني سأهب لنجدته .

ـ لقد سمعت أن ابن خالك بشر الهبرج قد قصد عشيرة الرواشدة لابد أنه يريد المساعدة من نسيبه جراح .

ـ لا أظن أن جراح سيلبيه لأنه هو الآخر مشغول في قتاله مع الدواسرة بل إنه أحوج من غيره إلى المساعدة .

أنهى كلامه ورمى برأسه على الأرض المعشوشبة وأغمض عينيه في غفوة أجبرته عليها أشعة الشمس في حين راح مناور يردد أغنية هازجة بصوت رجولي أبح :

يا حسناءُ
تترهوجُ كما يترهوج(*) الحجلُ
وتتثنى كما يتثنى الزهرُ الجذلُ
يا زفرة الربابةِ على قوسها المرنان
صدى عشقي بلغ أرض الهندوان
وبلب الفؤاد شبت النيرانُ
سأهجرُ الحبيبَ وأمضي مع الغزلانِ
فيا حبيبي عذراً
فقد دفعتُ الآهات للحبِّ مهراً
وكلمةُ أحبُّك زلة لسانْ
فقلبي أسلمَ الروحَ وخسرَ الرهانَ

(*) الترهوج : حركة الحجل .

ومن الآن لن أفتح للحبِّ باباً
فقد مزقته الحراب
وكان العشق والله سرابا
يا زفرة الربابة قد هيجت قلوباً غضاباً

عاد رديني ومن معه وقد أحضروا عشرة طيور بأرجل طويلة وأجسام كبيرة ريشها ملون بتوليفات تتموج بين البني والأصفر البرتقالي والكستنائي والرمادي إنها الحباري(*) وستكون غذاءً لذيذاً، وأرنباً رمادية بعيون مزقتها مناسر البزاة وأربعة طيور من القطا مكتنزة ببطن أسود أرقش أشهب ومجرد تخيلها عارية من الريش ومحمرة على النار سيسيل لها اللعاب من دون ريب .

بينما كانت الشمس تلملم ذاتها وتتأهب لرقدتها ملونة الآفاق بلون أرجواني يتماوج بين البنفسجي الخفيف والأحمر الشاحب .. وصل البازيارية بقيادة رديني إلى المنازل قبل سمهر ومناور . كانت المضارب تعج بصياح الرعيان المتواصل والإبل المتراغية وجلبتها المتعالية .

بلغ كل من الأمير ومناور المضارب حين كانت الشمس قد أوت إلى مخدعها وبدت بيوت الشعر كبقع سوداء داكنة متطاولة وقد نصبت في صفوف متعددة وفي الصف الأوسط وعلى بقعة خضراء راغدة انتصب بيت أسود على تسعة أعمدة يستدل من شارعته المرفوعة على أنه بيت الأمير وأمام هذا البيت ترك سمهر فرسه للخدم ودلف إلى الربعة(**) التي امتلأت بالرجال الذين نهضوا لتحية الأمير وقبل أن يجلس

(*) الحباري : من طيور البادية الكبيرة الحجم .

(**) الربعة : وهي القسم المخصص للرجال من بيت الشعر .

في مكانه فوجىء برؤية دارم الذي ذهب إلى حلب لبيع الخيول منذ أيام قليلة ولا يتمكن من خلالها أن ينهي عمله ويعود بهذه السرعة وقبل أن ينطق سمهر بكلمة أومأ له دارم بأنه يريد أن يكلمه منفرداً فقال الأمير متذرعاً :

ـ دارم ليتك تفحص فرسي أظن أن ساقها اليسرى الأمامية ليست على ما يرام قال هذا واستأذن من الحاضرين مصطحباً دارم الذي ابتدأ كلامه بسرعة كبيرة :

ـ إنه شبلي باشا خرج من حلب يقصدنا بحملة عسكرية فيها كوكبتان من الخيالة وسرية مشاة تحمل البنادق ترافقهم أربعة مدافع مقطورة بوساطة البغال وقد يبلغوننا بعد ثلاثة أيام .

ـ من أين علمت بأنه يقصدنا نحن بحملته هذه ؟

ـ إنه السيد سبنسر القنصل الإنكليزي في حلب من الواضح أنه لم ينسَ إلى الآن كيف أنقذته من قطاع الطرق منذ عامين ورغم أنّه « فرنجي » فهو رجل لا ينسى المعروف أبداً كما أنه أوصاني بأن أحذرك من الدخول إلى أية مدينة وإن اضطررت لذلك توجه إلى دمشق فهي أمينة إذا ما قورنت بحماة وحلب ودير الزور كذلك بغداد لا تقترب منها . وقد علمت منه أنه حاول التوسط لك عند الأتراك لكنهم الآن حاقدون عليك بعد أن سطونا على قافلة بغداد وهاهو ذا شبلي باشا خرج من حلب يقود حملة لتأديبنا كما زعم .

ضحك الأمير مقهقهاً وقائلاً :

ـ إنه إذاً لا يدري بأن شمس الصحراء سرعان ما ستذيب عزمه .. هؤلاء الأوغاد هل يرقبون منا خنوعاً بلا سبب وقبولاً بلا مسوغ

وإطاعة عمياء؟ عليهم إذاً بمواجهتنا .. وماذا قال لك أيضاً السيد سبنسر ؟.

ــ أنهى كلامه معي قائلاً : إنه سيحاول أن يرفدك بدعمه كلما سنحت له الفرصة وتمنى لنا الحظ الطيب .

ــ والخيول ماذا حل بأمرها وأين كل من جلوان وطراد وريان هل عادوا معك ؟.

ــ نعم وأظنهم الآن في الربعة ينتظرون ما تجود به عليهم من رأي .. أما الخيول فقد بعناها كلها لإفرنجي مسلم اسمه اسكندر يردون يملك قصراً في دمشق وأظنه الآن في طريقه إليها . إنه رجل غريب وأمره مريب تماماً فقد أذهلني عندما قال لي بثقة تامة إن خيول عشيرة الراجح هي الخيول التي يريدها رغم أنني سارعت في الإنكار أننا من الراجح خوفاً من أن يدري أحدٌ بأمرنا لكنه أصر على أنه واثق بأن الخيول هي لعشيرتنا ، وأنه عرف ذلك لأنه واضح على جيادنا أنها ليست معتادة على الأعنة .

ــ يا له من خبيث ماذا يريد من رواء قوله إن جيادنا ليست معتادة على الأعنة ؟.

ــ وأضاف أنه لن يخبر أحداً بأن بعض أفراد الراجح دخلوا حلب لبيع الخيول وأخيراً ودعنا قائلاً بلغوا تحياتي لأميركم وعقيد(*) حربكم الأمير البري المشاكس سمهر الجحجاح فقد سمعت بأنه سبع ضار .

ــ يا لمكره ما الذي كان يدور في خاطره حيالنا ومن أي مسلك

(*) عقيد الحرب : هو الذي يقود الغزوات والحروب وينظمها وقد يكون العقيد شخصاً غير الأمير أو الشيخ أو قد تجتمع هذه الصفة بالأمير أو الشيخ نفسه .

بلغكم. صمت الأمير برهة كأنه يحاول أن يصل لشيء ما بشأن هذا الرجل لكنه حين وصل لأبواب موصدة بهذا الأمر تكلم قائلاً:

ــ أحمد الله على سلامتكم التي أتمنى أن تحافظوا عليها بالمهمة التي أود أن تنفذوها غداً.

قطع عليه كلامه مجيء كل من مناور وعاطر اللذين بلغهما أمر الحملة للتو قال الأمير موجهاً كلامه لعاطر:

ــ ستذهب غداً أنت ودارم يرافقكم خمسة من فرساننا ومهمتكم أن تسرقوا البغال المخصصة للمدفعية من الحملة التي لا بد لها من قضاء الليل في العراء وعندما يفقدون بغال المدافع سيجبرون على العودة من حيث أتوا وإن لم يفعلوا وأصروا على متابعة حملتهم ارجعوا بسرعة ستكون العشيرة قد تراجعت باتجاه الفرات وإن اضطررنا سنعبره إلى الضفة الأخرى.

في وقت متأخر من تلك الليلة بعد أن غادر الجميع وفض مجلس الحرب مكث سمهر وحده ــ يجادل نفسه ــ وهو سارح ببصره في السماء مراقباً تلك الشهبان التي تحلق في الليل تاركة خلفها ذيلاً طويلاً كأنها سهام يرشقها محاربٌ سماوي. حدَّث نفسه: ماذا لو أجبرنا على قطع النهر وأصبحنا قريبين من الوهبان عندها سنعود إلى المعارك وأكره على مواجهة مشعل مرة أخرى.. رباه في المعركتين الماضيتين كدت أن أقتله.. لِمَ يصرّ القدر على أن يضعنا وجهاً لوجه في حين يشق علي أن أتجاهل صداقتنا القديمة ياللظروف القاسية التي طوقتنا بعداوات لا تنتهي ودماء لا تجف.. توقف الأمير عند هذا الحد ليركن إلى نوم عميق فالعشيرة ينتظرها الرحيل غداً.

ويلك لو أن اليأس نفذ يوماً إلى نفسك
فالماضي ليس إلا حطاماً مهترئاً
وإذا ما الزمان فتق جراحاً لابد يرتقها
واعلم أنه ليس بين بني البشر ذاك الذي يملك
قوة جبارة تستطيع تدجين القدر وتخمين المصير
وتطويع الآلام وهيهات أن يكشف منجم خبيئة
الأيام.



في اليوم التالي صحت القبيلة على ضوضاء وجلبة عكرت هدوء البادية وسكونها.. فقد سرح الرعيان بقطعان الإبل والأغنام نحو الجهة المقصودة قبل طلوع الفجر في حين قوضت البيوت وحملت مع سائر الأمتعة والأثاث على الإبل قبل طلوع الشمس ثم سارت العشيرة نحو الفرات يتقدمها الأمير وكبار وجهاء العشيرة تتبعهم النساء اللواتي اعتلين الهوادج(*) ومعهن الأطفال الصغار في حين اعتلت النساء ظهور الإبل من دون هوادج يتبعهن العبيد مشياً على الأقدام. أما فتيان القبيلة الذين هم دون الخامسة عشرة فقد أثاروا بلعبهم الذي لا ينتهي حتى أثناء الرحيل الكثير من الفوضى فبدوا كعصابات لا تعرف الهدوء.

(*) الهودج: هو مركب مخصص للنساء المترفات للركوب على الجمل ويكون مصنوعاً من الخشب والخيزران ويغطى بالسجف المخملية ويزين بالمرايا والودع وريش النعام.

وصلت العشيرة بعد الظهر قليلاً إلى سهل منبسط وفسيح قد نبتت فيه الأعشاب الغزيرة تحف به غابات الطرفاء التي تنتهي بضفة الفرات .

وتسابقت الخيل وكل واحد نصب رمحه في مكان وربط فرسه بالرمح أي أنه يريد أن يكون بيته في ذلك المكان ومالبثت أن وصلت الظعون وكل امرأة عرفت فرس زوجها وشرعن بنصب البيوت وسرعان ما ارتفعت الأعمدة بالبيوت ومدت الأطناب وفاحت رائحة القهوة وتراكض الأطفال والفتيان في كل صوب يبحثون عن مفاحص(*) القطا وبيوضها وعن طيور السمن التي تكثر في هذا المكان وكذلك اكتظ السهل بطيور الدراج وأسراب الأوز التي تحلق مطلقة نداءات حادة وكذلك برك الماء التي تؤمها طيور البط بأقدامها الوتراء ومناقيرها المسطحة .

مالت الشمس للمغيب وانعكست صورتها على وجه ماء النهر فبدت كأنها ألقت بنفسها في عبابه وشيئاً فشيئاً بدأ السكون يحتل تلك البقعة والقبيلة بدورها مالت إلى الهدوء أكثر فأكثر إلى أن حل الليل وارتفع القمر البهي يترقرق ويتراقص برشاقة فوق سطح مياه الفرات وأرخت النجوم ضوءها وتقافزت الشهب كعادتها على عجل فيما ترك سمهر ربعة بيته مليئة بالرجال وخرج متمشياً إلى مربط فرسه كهرمان ووقف قرب رفيقته في السفر والرحيل والمعارك والقنص والصيد ، وراح

(*) مفحص القطا : القطا لا يبني أعشاشاً بل على غرار الحجل يحفر حفرة صغيرة ويضع فيها بيضه ويرقد عليها وتسمى هذه الحفرة مفحص .

يداعب غرتها الشقراء رافعاً بصره إلى السماء المطرزة بالنجوم البراقة ومتفرجاً على الشهب وهي تشق طريقها بين النجوم .

ـــ هل عشق أميرنا نجمة من نجوم السماء . جاء هذا على لسان مناور بصوت عالٍ بحيث أفاق الأمير من تأمله ليقول :

ـــ لا يا عزيزي تكفيني نجمتي التي عشقتها على الأرض ورغم أنها نجمة أرضية لم يكن بوسعي أن أنالها فما بالك بنجمة سماوية .

ـــ إنه طيف فاطم إذاً .

ـــ لا صدقني لم أكن أفكر بها بل إنه مشعل الذي بات قريباً جداً وإذا تقدمت الحملة سنضطر لعبور النهر إلى الضفة الأخرى عندها سنصطدم مع الوهبان وأنا لا أخشى الأتراك ولا الوهبان بقدر ما أخشى مواجهة مشعل في معركة قد أقتله فيها وهذا ما لن أسعى إليه .

ـــ إذاً أنت تخشى أن يجبرك القدر على قتل صديقك .

ـــ بل إنه المجهول المخبوء في الغد الذي قد يجبرني على فعل أشياء كثيرة لا تقبلها روحي .

ـــ يا صديقي دعك من عواصف النفس هذه فهي لن تزيدك إلا حيرة وبؤساً .

أنهى مناور كلامه والتفت إلى فرس بيضاء ربطت قرب كهرمان .

ـــ هل هذه الفرس هي خود يبدو أنها لم تعد مهرة سأل مناور سؤاله وهو يتمعن فيها في حين أجابه سمهر قائلاً :

ـــ نعم هي خود وقد نضجت كما ترى وأصبحت فرساً قوية وسريعة تكاد تحلق عندما تجري .
ـــ أظنها ستحتل مكان كهرمان .
ـــ لا .. ظنك ليس في محله كهرمان فرسٌ ذكية وقد اعتادت على طبيعتي تماماً أما خود سيأتي اليوم الذي ستخدمني فيه هيا بنا لنعود للربعة .

مر النهار الثالث على العشيرة من دون أن يعرف الأمير شيئاً عن الحملة أو عن عاطر ومن معه إلى أن حل المساء وعاد عاطر والفرسان الذين يرافقونه ومعهم عشرة بغال وما إن رأى سمهر البغال العشرة حتى أدرك بأن عاطر قد نجح في مهمته .

دلف عاطر وبقية الفرسان إلى الربعة وحيّوا الأمير ومن معه وشرب عاطر عدة فناجين من القهوة .. ثم بدأ حديثه قائلاً :
ـــ في الليلة الماضية تسللنا إلى المكان الذي نصبوا خيامهم فيه وسرقنا خيول المدفعية وخبأناها بمغارة « هريت الشدق » وأظن أن بعض العسكر قد شعروا بنا لكنهم جبناء تظاهروا بالنوم وفي الصباح راقبناهم من بعيد فقد قطروا المدافع بخيول العسكر وعادوا من حيث أتوا وعندما غابوا عن أنظارنا أخرجنا البغال وعدنا بها وكما ترون هي مجهزة بكامل عدتها ولكم أشفق على الجنود الذين سيعودون إلى حلب مشياً على الأقدام تكلم الأمير الذي انفرجت ملامح وجهه .
ـــ لكم أمقت براذينهم(*) التي ليس لها صهيل وكم أحسنتم يا سباع الراجح .

(*) البرذون : الجواد غير الأصيل . غير العربي من الخيل والبغال .

أعلن الأمير عن وليمة عشاء ستقام الليلة وفي هذه الأثناء جاء الخادم حبشان يعلن عن قدوم ضيف... إنه شلاش ابن عم جراح الظاهر شيخ عشيرة الرواشدة. استقبله الأمير بشيء من الجمود فقد خمن ما وراءه. وبعد قليل جاء أربعة من الغلمان يحملون صينية بأربع آذان كبيرة وقد تم حشوها بالرز زركش بلحم الخراف المقطع سال له لعاب الحاضرين قبل تناول العشاء.

وبعيد العشاء بقليل وفي غفلة من الحاضرين اقترب مناور من سمهر ليضع شفتيه عند أذنه قائلاً:

ـــ أظنك عرفت لِمَ جاء شلاش وهذه المرة الثانية يستنجد بك جراح في قتاله مع الدواسرة.

ـــ لن ألبيه.

ـــ لكن هذا سيثير ريبته.

ـــ لا يهمني بل هذا ما أريده.

ـــ يالك من عنيد ماكر.

ـــ موافق وأبعد شفتيك عن أذني هذا يزعجني قال سمهر هذا ومد يده ليأخذ فنجان القهوة من حبشان، وما هي إلا دقائق حتى تكلم شلاش عن المهمة التي أرسله بها جراح وحاجته الملحة لنجدته من الأمير سمهر الذي رفض بشيء من الفظاظة أزعجت شلاش وكدرت خاطره وكذلك أثارت استغراب الحاضرين.

وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة نام فيها الجميع إلا سمهر الذي اضطجع يشرب القهوة ويحدق أحياناً في فنجانه وأحياناً في ضيفه النائم شلاش الظاهر عندما جاء العبد مبارك يعلم الأمير بأن أمه تطلبه في

المحرم(*) نهض سمهر متجهاً إلى أمه وهو يقول لنفسه ــ لا أريد أن أواجه تلك النظرة المحدقة التي تبدو وكأنها تخترق عقلي .

بدأت الأم حديثها بصوتٍ فيه نبرة حادة :

ــ لِمَ رفضت نجدة عشيرة الرواشدة؟ فهي من أهم العشائر المتحالفة مع الراجح منذ سنين طويلة ، لكن يبدو أنك لم تعد ترى من الرواشدة إلا شيخهم جراح الذي أخذ منك فاطم ولا تستطيع أن تلومه فهو لم يعرف بعشقك لها . كما أنك رفضت طلب شلاش بأسلوب لا يخلو من الوقاحة فقد كنت تستطيع أن تختلق الأعذار والحجج ويكفي أن تذكر أمر الحملة التركية ليعذرك جراح وعشيرته لكنك تعتمدت الرفض من دون تقديم المسوغات وكأنك تقصد أن يحدس جراح أنك غاضب منه .

أنهت الأم كلامها منتظرة جواباً من ابنها الذي رد عليها بنحو مفاجيء وانفجر صائحاً بصوت عالٍ .

ــ لن أحارب من أجل زوج المرأة التي أحبها .

وبلهجة التأنيب قالت الأم :

ــ ويحك أخفض صوتك يا لك من خبيث هل تتعمد أن ترفع صوتك ليسمعك شلاش ، رباه ! ماذا لو لم يكن نائماً وسمع ما تفوهت به .

ــ لا يهمني .

ــ أيها الأمير الفاسق لا يحق لك أن تتعامى عن مصلحة عشيرتك وتتجاهل من حولك .

(*) المحرم : هو القسم المخصص للنساء من بيت الشعر .

ـــ أمير نعم أمير .. إنني لست إلا عبداً لعشيرتي .. إنساناً تكتنفه الآلام ويجيش في صدري غم لا يحتمله أحد وغيرتي من جراح تكاد تقتلني ولا أحد يقيم وزناً لقلبي الذي يترنح ألماً .. اسأليه .. اسألي هذا الجزء التعيس من جسدي الذي يحمل اسم قلب اسأليه ألا تمزقه رعود وصواعق من الألم .

ـــ يا بني يا أعز من لي في هذه الدنيا إنه القدر الذي حرمك فاطم ويتوجب عليك الاستسلام له عن طيب خاطر ، وإن لم تفعل فإن الأيام تجبرك على الرضوخ إلى ما لا مفر منه ، ويا بني لا جدال في أننا يجب أن نعزز الآمال التي تنمي في نفوسنا المناعة ضد الأسى فاليأس يؤدي إلى هزالة الروح والجسد .

ـــ أماه إنني أبذل جهوداً مضنية من أجل التعلق بالأمل لكن ماذا نقول في ضآلة سيطرتنا على عواطفنا وضعف قدراتنا على معارضة أهوائنا .

في اليوم التالي ودع شلاش الأمير ورجاله بوجه مكفهر وبنظرات ذات معنى كان يرمق بها سمهر كلما التقت نظراتهما . وفي ظهر ذلك اليوم دلف سمهر إلى المحرم حيث كانت شميم تقف مسندة ظهرها إلى عمود تستمع إلى حديث يدور بين شقيقته الصغرى عذوبورديني كانت عذوب التي يسود وجهها الجمال والمرح معاً جالسة تداعب خشفاً(*) أبيض وكأنه ولد لتوه وقد وقف إلى جانبها رديني وكأنه ينتظر شيئاً ما .

(*) الخشف : وليد الغزال .

تكلم سمهر بصوت مرح :
ــ عذوب أيتها الغزالة العابثة من جاءك بهذا الغزال الصغير إنه يشبهك تماماً . ضحكت عذوب وقبل أن ترد على أخيها تكلم رديني بعصبية واضحة وقال :
ــ أنا أحضرته وهاهي ذي ترفض أن ترده لي .. ضحك سمهر قائلاً :
ــ إذاً قد سلبتك عمتك أكلة شهية .

قال رديني :
ــ ومن قال إنني سأتخلى عن غذائي ردت عليه عذوب بحدة :
ــ خسئت أنت وسكينتك الغجرية التي تود بها أن تسلب هذا الخشف حياته .
رد رديني ساخراً :
ــ حسناً : إذا كنت تخشين عليه من السكين سأطلق عليه الباز شاهباز ليمزق عينيه . وبإصرار قالت عذوب :
ــ أيها الماكر أقسم بأن غذاءك اليوم هو كمأة مشوية وليس غزالاً مشوياً .

توجه رديني الذي يئس من عمته إلى عمه الأمير ، وقال له :
ــ عمي إن مثل هذا النهار يكون فيه الصيد رائعاً ما رأيك أن نذهب بمحاذاة النهر حيث البرك المحاطة بأجمات النبات سنجد الكثير من طيور الماء والإوز والبط والدراج .
ــ إن مزاجي في هذا النهار لا يرحب بالصيد لكن لن أثبط همتك العالية اذهب أنت ومبارك وثلاثة من البازيارية ولا تأخذ شاهباز معك

وإياك أن تقترب من الأدغال وإن فعلت فإنني سأحرمك من الصيد إلى ما شاء الله .

ذهب رديني وهو ينادي على مبارك بصوتٍ عالٍ تملؤه البهجة والحيوية المتدفقة . اقترب سمهر من أخته عذوب وجلس يخاطبها ساخراً :

ـــ إن لم يظفر رديني بصيد وافر فإننا سنذبح غزالك هذا .

ردت عذوب وابتسامة ذات معنى تعلو شفتيها :

ـــ دعك من غزالي ألا تريد كهرمان أن تشرب الماء فلابد أن الفتيات قد قصدن الماء الآن .

ـــ يا شقية إنني سيد العشيرة وآخر شيء أسعى إليه هو أن أعبث مع صبية من صبايا عشيرتي عندها لشد ما تكون مكانتي زهيدة بين قومي .

ـــ لابد يوماً أن يطوحك الهوى عن كبريائك هذه .

ـــ حسناً الأهواء تمضي أينما يدفعها القلب .

ـــ وهل قلبك يدفع بهواه بعيداً عن عشيرتنا ؟

ـــ يا خبيثة لِمَ إصرارك على أن تقذفي شقيقك في لجة الهوى .

ـــ قل لي إن أية فتاة لم تطأ بعد صدرك .

ـــ إن أمور الهوى لا يسعني ابتياعها ولا حتى بالكنوز . قال سمهر هذا ولفت بصره حيث كانت شميم تستمع من دون أن تتكلم وبين حين وآخر تلوح الابتسامة على ثغرها ثم ما تلبث أن تحدق في السماء وكأنها تفتش عن شيء ما .. حدق فيها سمهر بحنية فهو لسبب لا يعرفه يخشى عليها دائماً . ومن حين لآخر يراوده إحساس عميق بأن عليه أن يحميها ولكنه لا يدري متى وأين عليه أن يفعل ذلك ؟

وشميم فتاة جميلة تتثنى قامتها بهبة ريح وملامح وجهها تشبه ملامح شقيقها سمهر إلى حد بعيد إلا أن لون عينيها أزرق وليس أخضر .

قال سمهر :

ــ أي شميم هل ضاع منك شيء يخصك في السماء؟.

وكعادتها زينت ثغرها الجميل بابتسامة رقيقة وبقيت صامتة ترك سمهر المحرم وعاد لربعته حيث جلس مناور ينتظره وهو يحدق في شاهباز الذي انتصب واقفاً على دكته قال مناور :

ــ ماذا لو واجهت جراح يوماً .

رد سمهر بتكاسل :

ــ سألقي عليه التحية .

ــ يا صديقي عبثاً أن نسترد ما كان في الزمان الذي ولّى .. فهو زمان لن يعود .

ــ كف عن نصائحك الثمينة .

ــ ليس من الحكمة أن تجافي جراح .

ــ أليس لي أن أشفق على نفسي؟ إني أسمع صيحة قوية صادرة من أعماقي تدعوني لأن أكون أنا وأن أحيا أنا وتحيا روحي ويحيا قلبي .. صحيح أنني لا أستطيع أن آخذ فاطم من جراح لكن هذا لا يمنعني بأن أتمنى وأحلم بحدوث شيء ما يعيدها إلي فإن لم نحلم بالسعادة فكيف نحيا الأيام القادمة والزمان الآتي الذي سرعان ما يمر ويصبح ماضياً يجب أن نعقد العزم على أن لا نفرط بحقوق الروح ولا الجسد الذي يسيجها .

ــ حسناً حسناً كما تريد .

من هو ذا الذي يبغي هتك شرف الصحراء ؟
من ذا الذي يريد أن يدخل غمار البرجاس (*)
مع أناس لا تلذ لهم أنفاس الحياة إذ هي خلت
من غبار المعارك .
صه يا أبالسة طغرل
وانطلقي يا صيحة الدم مجلجلة
فمن يصد رماحاً اتقدت ناراً وسيوفاً تسعرت غضباً ؟
من يكتم نصراً ؟
ويا أيها الباشا كثيراً ما يكذب الظن .

*

في صباح اليوم الذي تلا عودة عاطر والفرسان وبينما الأمير يرتشف القهوة التي لا يمل من طعمها ظهر عاطر يتبعه كل من مناور ودارم وخيولهم تعدو أسرع من ريح عاصفة نهض سمهر وقد توجس بأن وراءهم شراً .

وقد صدق حدسه فالحملة التركية ظهرت فجأة قادمة من الجنوب وقريباً ستكون فوق الجروف المطلة على السهل حيث تنتشر بيوت الراجح وقطعان الإبل . فالباشا قام بحيلة ماكرة فقد تظاهر بأنه تراجع متجهاً غرباً لكنه بعد مسافة غير قليلة غيّر اتجاه الحملة للجنوب ثم انعطف شرقاً فشمالاً بحيث يفاجىء القبيلة من الجهة الجنوبية حيث الجروف العالية التي يحلو نصب المدافع عليها .

(*) البرجاس : ميدان سباق الخيل أو التدريب على الفروسية .

جاء الخبر على لسان عاطر كالسيل الجارف على سمهر الذي جمد بمكانه وما لبث أن انطلق لسانه صائحاً :

ــ فلترحل القبيلة حالاً وتعبر النهر ولتهتموا أولاً بترحيل النساء والأطفال ثم تلتفتوا لقطعان الإبل وتقودوها عبر النهر أما أنا وثلاثون فارساً فسنهتم بأمر الباشا وجنوده .

صمت ثم أردف يقول بصوتٍ عالٍ :

ــ خزي لنا لو جرح أحد من الراجح ولا حتى عبد من عبيدها وبؤساً لنا لو أننا لم نذق الباشا وأذنابه طعم الهزيمة المذلة .

وما أسرع ما طرحت أعمدة البيوت وغرقت العشيرة بضوضاء الرحيل واصطخب السهل بجلبتهم . وفي هذه الأثناء وصل الباشا مع حملته إلى الجروف المطلة على السهل وراح يطوف بنظره مستفهماً ما يجري في السهل وسرعان ما فغر فاهُ عندما خطفت أبصاره قطعان الجمال التي يصل تعدادها إلى أربعة آلاف جمل تركت من دون حماية حيث شرعت القبيلة في عبور النهر وانشغلت بأمرها مما أغرى الباشا أن لا يضيع فرصة الاستفادة من هذا الظرف فأرسل مجموعة من خيالته لتمنع الجمال من انسحاب محتمل باتجاه الفرات وبهذا اعتبر الباشا أن القطيع أصبح بحوزته . وبينما هو يرقب ما يجري أمامه وينتظر ردة فعل الراجح ظهر ثلاثون فارساً يرفعون الرماح ويجرون بمحاذاة النهر على الضفة المقابلة شرقاً وسرعتهم تكاد تكون أسرع مما تجري مياه الفرات نفسها .

خمن الباشا بأنهم يذهبون باتجاه معبر ما ليعبروا النهر ويقومون بالالتفاف على الحملة فرأى الباشا بأنه سيكون صاحب فطنة لو أنه

فاجأهم عند المكان الذي سيعبرون منه وقضى عليهم، هناك لن يسمح لهم بالوصول إلى السهل حيث الجمال التي أخذت عقله فما كان منه إلا أنه أرسل وراءهم جل عساكره لمواجهتهم عندما يحاولون العبور وبهذا يتأكد له نجاح حملته .

صهلت كهرمان بحنق وهي تدق الأرض بحوافرها وكأنما شبت في جوفها النيران تريد الانطلاق وسرعان ما أرخى لها فارسها العنان وانطلقت تعدو بسرعة جنونية وعلى ظهرها الأمير الذي رفع رمحه الطويل وانطلق وراءه سبعة من الفرسان بينهم مناور وعاطر أحدهما على يمينه وآخر على يساره .

قطعوا النهر من دون أن يلتفت لهم الخيالة الذين حاصروا الإبل وقبل أن ينتبه الملازم المسؤول باغته الأمير بطعنة سريعة شديدة من رمحه فخر صريعاً ودبت الفوضى بين الجنود الذين استبدت بهم الحيرة وخيم عليهم الاضطراب .

وانخسفت الأرض من تحت أقدام الباشا الذي رأى كل شيء من أعلى وأدرك الحيلة التي قام بها الأمير ورجاله فأمر رماة المدفعية بإطلاق النار وصوبوا باتجاه القطيع حيث كانت تجري المناورة التي كان الفرسان الثمانية يقومون بها بمهارة مع الجنود الذين تبعثروا بكل جهة ومن دون انتظام .

وكانت أصوات قصف المدافع تذوب وسط هرج الإبل ونتيجة للتصويب الخاطىء من قبل رماة المدفعية الذين اجتاحهم الفزع قتل اثنان من العسكر وقد سارع في إخفاق الحملة هيجان الإبل بسبب

أصوات قصف المدافع مما أدى إلى انفعالها بشدة وراحت تطأ كل ما يصادفها إلى أن استطاع الفرسان الثمانية تهدئة القطعان وقيادتها كلها عبر النهر وقد ارتفعت أصواتهم بهتافات النصر وصهلت جيادهم مشاركة فرسانها ببهجة النصر وزهوته.

أما الجنود الذين أرسلهم الباشا لمواجهة الثلاثين فارساً فقد عادوا بعد أن أدركوا أن الاتجاه الذي تم جرهم إليه يؤدي إلى أن يصبح النهر أعمق وجريه أشد بحيث يستحيل عبوره لكنهم فطنوا لذلك بعد فوات الأوان، وبعد أن توهم الباشا بأن الهجوم سيكون من الجهة التي قصدها الثلاثون فارساً في حين باغته الأمير ورجاله من جهة أخرى.

آب الباشا إلى حلب وهو يكيل أشد اللعنات نافثاً زفرات سم وغيظ بعد أن وصلت إلى مسامعه صيحات الفرح وهتافات النصر التي تسخر من إخفاق حملته التي ذهبت آمالها في الصحراء مبددة أحلامه.





تبدت لي يوماً إحدى جنيات الصحراء اللائي كن يجبن أفواه الينابيع وسألتني أحجية :

ــ من هي تلك صاحبة البدن المصاغ من جلود الغزلان ذات الأوتار المرتعشة والمشغولة من أذناب الخيول الأصائل وبوسعها أن تتعقب مواطيء أقدام العشق في القلب موطئاً إثر موطيء ولها حنة تظفر بأفئدة الوحوش وأنة تبكي الذئاب الغبر وزفرة تؤوي إلى لب الفهد الذي ينحم .

أجبتها : من غيرها الربابة تتوق أبداً للفوز بصيحات شفاهنا وتأوهات قلوبنا .



لا أظن بأن شبلي الباشا سيخاطر مرة أخرى ويغامر بالولوج إلى الصحراء ، قال الأمير هذا وهو يعتلي صهوة كهرمان فوق ربوة صخرية عالية تنداح أمامها تلك الامتدادات الفسيحة التي انتشرت عليها ألوان الورد بتنوع كثير ، وهناك في الأسفل عند أقدام الربوة الصخرية تفرق الفرسان والبازيارية والغلمان وتعالى نباح الكلاب التي راحت تلاحق الأرانب بمساعدة البزاة وإلى جوار الأمير وقف كل من دارم ومناور وقد ترجلا عن جواديهما ، تكلم دارم :

ــ لشد ما تمنيت لو أننا أمسكنا بالباشا وكسرنا له رجليه كما يُفعل بالحجلة حين تصاد .

رد عليه الأمير الذي كان يراقب سرب إوز يرحل إلى البعيد غائباً بين الغيوم :

ـــ لا بد أنه تعلم كيف يوقر غضبنا .. أليس كذلك يا مناور ؟ مالك شارد الذهن والبصر ؟

رد مناور :

ـــ حسناً إني لا أرى أنه من الصواب أننا قطعنا النهر لأجل الصيد فالضفة الأخرى مليئة بالأجمات الغنية بما هب ودب من طير وحيوان ولا ريب أننا كنا سنظفر بصيد كثير من دون أن نخاطر بالابتعاد عن العشيرة .

ـــ إنني أمقت الأجمات والأدغال فبينما يلهيك تغريد الطيور قد يباغتك سبع ضارٍ من الوراء وقد مر علينا أيام منذ أن أجبرتنا الحملة على عبور النهر وقد اشتقت إلى تنشق نسمات البادية الفسيحة .

ـــ لكن لا يظنن أحد بأن الوهبان لن يتحرشوا بنا .

ـــ أدرك هذا وأنا متيقن بأننا إذا ما طال مكوثنا على الضفة الأخرى سنتواجه في معركة تقطر دماً لكنني أؤمل كثيراً بأن باشا حلب لا يفكر بحملة أخرى وريثما يتم التأكد لي من ذلك سأعمل مخلصاً على تجنب أية مواجهة محتملة مع الوهبان .

تدخل دارم قائلاً :

ـــ لكن ماذا لو فكروا في غزونا .

رد الأمير بتأن شديد :

ـــ أتمنى أن يسعفني الحظ وأن لا يحفزهم شيء على غزونا ، لكن من يدري . قال هذا وراح بصره يتابع السحاب الذي يواصل عبور

السماء ويحدث نفسه بصمت : إني أركع عند قدميك أيها القدر فلا تصم أذنيك عن مطلب فيه ردع لجريان الدماء وسأكون ممتناً لك إذا ما مرت الأيام القادمة بسلام ومن دون أن توشحها الدموع .

أفاق الأمير على تعالي جلبة الصيد فصاح برفيقيه :

ـ هلمّا بنا فالصيد بلغ أشد لذته وأوج غمرته . انحدروا حيث كانت تجري المطاردة ، وانخرطوا في عباب القنص والصيد إلى أن شارفت الشمس على ختام رحلتها ، فعادوا أدراجهم وجعبتهم مترعة بالأرانب وهمتهم أنهكها التعب الممتع .

حين بلغوا مضارب العشيرة لاحت لهم جموع الغجر المتناثرة بين المنازل تصحبهم خيامهم الحقيرة وحميرهم الكثيرة في حين توزعت نساؤهم ذوات الألسنة الذربة على المنازل يعرضن بضاعتهن من حب القرنفل والرشوش والخضيرة(*) ويعرضن أيضاً ما يمكن أن يقدمنه من خدمات فبعضهن ماهرات بنقش الوشم والتفنن بأشكاله ورموزه فتستباح لأناملهن كل أنحاء الجسد . وبعضهن يستخدمن مهارتهن في الكذب والشعوذات فيوهمن النساء بأساليبهن الخداعة أنهن بارعات في عمل الرقى السحرية والتعاويذ التي لا تخيب مقاصدها وأما اللواتي وهبهن الله الصوت المليح فعملهن يقتصر على الرقص والغناء والطرب .

وأما رجال الغجر فإنهم يمهرون في صنع الخناجر والسكاكين التي يتفننون بشغل مقابضها من قرون الغزلان كذلك المهابيج المعمولة

(*) الخضيرة : مسحوق عطري يجلب من مدينة حلب .

من خشب البطم والسوِّيد الذي يحصلون عليه من جبال البلعاس ومنه أيضاً يصنعون حاجات الحياكة والغزل وكذلك الربابات التي تشغل من جلود الغزلان وأشعار أذناب الخيول الأصيلة .

وهؤلاء الغجر لديهم أنامل حين يمسون بها قوس الربابة فإنه يجود بكل ما يملكه من عذوبة . وأفواههم لها أنفاس حين تسري في بدن المزمار فإنها تحيي كل نداءاته فيفضي بكل ما في خاطره الجذلان .. أما المزاهر فلا ينهض سحرها إلا على نقر أصابعهم فتلبي ما يرغبونه من إيقاع بصداها المبهم .

والغجر يعرفون تماماً كيف يلعنون من لا يحسن لهم الجزاء والعطاء هذا عدا ألسنتهم التي تدور بين القبائل وتفضح البخيل وتمدح الكريم .

دلف الأمير لربعة بيته المكدسة بالضيوف من رجال العشيرة والغجر وهب الجميع لتحيته وكان بينهم التاجر بهزاد الذي يرافق الغجر أحياناً ليحمي تجارته وما بحوزته من بضائع .

راحت فناجين القهوة تدور على الحاضرين وابتدأ الأمير بالكلام :

ــ أظن أن بهزاد يقبض براحة يده على أخبار أكثر مما تحمل بغاله من بضاعة .

ضحك بهزاد وقال :

ــ إن الأمير لابد يعرف أن التجوال بين العشائر أمر يفرضه علي رزقي لكنني منذ بداية الشتاء قعدت عن التجوال بين العشائر فقد غدوت

رجلاً بشعر أشيب ولا أقوى على قساوة شتاء البوادي لذا فكرت في الذهاب إلى استامبول لأبتاع منها ما يلزمني لتجارتي التي ابتدأتها اليوم بعشيرتكم .

ــ وماذا ابتعت من استامبول .

ــ قماش ونسيج .

ــ وهل يتقنون هناك نسيج شيءٍ غير الدسائس والمكائد .

قال الأمير هذا متعمداً أن يستثير لدى بهزاد ما يمكن أن يكون قد سمعه في حلب بعدما عادت حملة الباشا خائبة .

رد بهزاد وعلى شفتيه طيف ابتسامة :

ــ إن باشا حلب حاقد عليك منذ زمن ، فما بال الأمر بعد أن رددت حملته فاشلة لا ريب أن صدره قد تحشّى سماً ولن يكفّ عن التشوق لرؤية الأمير سمهر أسيراً أو قتيلاً .

ــ هذا الباشا لو أن الرياح واتتني أكثر مما كان لأمسكته وقتلته وربطت رأسه بذنب حصانه وأرسلته التي استامبوله التي لا تساوي عندنا ثقل بعرة الجمل .

ضحك الجميع في حين تابع الأمير كلامه بصوت يخلو من المرح :

ــ إنهم قومٌ لا يخجلون من أفعالهم الخسيسة المغشاة بالدناءة والغدر .

قال بهزاد :

ــ ماذا لو فكروا بأن يقوموا بحملة أخرى .

رد الأمير بعزم :

ـــ عندها سنقيم مأدبة للضباع على جثثهم .

بعد قليل ابتدأت الحفلة التي من عادتهم إحياؤها في أول ليلة لهم بين العشيرة ، راحت أنامل الغجر القصيرة الممتلئة تنقر على المزاهر برشاقة ومالبثت الربابة أن أطلقت ولولاتها المتألمة وصيحاتها المتوجعة وتصاعد عويلها الذي يستدر دموع الإنس والجن وانبرى نقر المزاهر والدفوف يعترض آهات الربابة على نحو رائع .

في حين راحت الغجرية نعوم صاحبة الصوت الحنون المبحوح تنشد إنشاداً طافحاً بالإشفاق والأسى كانت كلمات الأغنية تقول :

يا قلبي كيف هاج الحنين

يا حمامة راق لها السجع على النخيل

لما الدموع أيتها الورود

فحبي صار في غابر العهود

أترعت الكلمات قلب الأمير توجعاً على كل ما فات وراح ضحية للماضي ، وهزته أنات الربابة وشهقاتها وراحت الذكريات تهاجمه ، تلك الذكريات التي تثير رجيف الروح وأغمض عينيه تحسراً على ما مضى وما كان .

كانت نعوم تغني بصوتٍ رخيم فيه بحة برية تتناغم بصورة مدهشة مع وحشية البوادي يا زماني لا لا هذه الكلمات هي مطلع لأغنية شهيرة في البوادي وتجاوبت الربابة بخلجات كأنها موافقة على التمرد على الزمان كأنها تقول لا بأنةٍ وبحةٍ مضنية تابعت نعوم منشدة :

يا قلبي ذاك الهوى فحاذره ولا تسمع معاذره ..

ورنات الربابة تتوالى متسللة لمخادع العذاب في القلب ونغماتها جامعة بين اللذة والألم والخوف والرهبة على نحو لا مثيل له .

كان الأمير يتمنى لو أن بوسعه أن يصيح بأعلى صوته : يا الله عليك أيتها الربابة كفى أنكأتِ كل جراحي ، وبعد قليل هدأت الربابة وبدا صوتها يشبه النحيب وهدأت أكثر فبدت كما لو أنها تئن ثم انتهت أناتها كما لو أنها أسلمت الروح .

جاء سبعة من الغلمان يحملون صينية ضخمة لها سبع عُرَىً حملت منها ، وكانت الصينية شديدةالتنميق والتزويق مزينة بزخارف مختلفة من النقوش المتشابكة وأغصان النباتات المجدولة ، وكل ما فيها يفصح عن دقة صنعها وكانت مليئة بالأرز المغمور باللحم .

وبعدما أنهى الضيوف عشاءهم وقبل أن يأتي الخدم لحمل الصينية التي كانت ما تزال تزخر بأرز ولحم وافرين حدث شيء لم يكن يتوقعه الحاضرون فقد كان بين الغجر رجل قصير القامة لدرجة مضحكة وكثير المرح لدرجة مفرطة ، واسمه حبوب وما كان من حبوب هذا الذي أثارته الصينية الضخمة التي تتسع لسبعة خراف إلا أن شمر عن ساقيه وعض على أطراف ثوبه بين فكيه وعلى بعد غير قليل من الصينية ركض مسرعاً نحوها ورمى بنفسه بحضن الصينية .

ووسط الضحك والدهشة التي أصابت الحاضرين هب الأمير من مكانه إلى حيث استقر حبوب وسط الصينية وراح الأمير ينتشل

رؤوس الخرفان بين الأرز ويضعها في رداء حبوب الذي أخذ الرؤوس فرحاً وعاد راكضاً كما جاء.

ونام الجميع بعد سهرة اختتمت بما فعله حبوب الذي ربما حفزه على ذلك كبر الصينية فأرخى سدول البهجة على تلك الليلة.

كان لغط القطا أول ما توارد إلى أسماع سمهر حين ولج الصبح بوابة الفجر واستعاد ضوءه وسارع ليوقظ الزهر الذي ما فتىء يتثاءب بغنج.

وكعهده دائماً ابتدأ يومه بشرب القهوة في حين ارتحلت به مخيلته إلى الحسناء «روض» الفتاة الغجرية صاحبة الوجه الساحر المخضب بالإغراء، وتذكر كيف كان يقطف القبلات من شفتيها بوجل خوفاً من الرقباء والعيون الذين كانت ترسلهم أمه وراءه.. وسأل نفسه: هل يتسنى لي مرآها؟ لاريب في ذلك لكني أخشى لهب نيرانها.

وفي الضحى توافدت نساء العشيرة على التاجر بهزاد، الذي تحفل جعبته وتزخر بكل ما يستهوي النساء، من خام بلون أحمر وعقود من خرز ملون، وأساور زجاج ومناديل ملونة ومطرزة بتطريز يدوي بديع، وكذلك إبر، دبابيس، مرايا صغيرة، بخور، أمشاط خشب، فلفل، قرنفل، لجم خيل، مسابح عرق اللؤلؤ ومسابح عين التمر هذا عدا عن العطور وأميال الكحل والأمشاط المصنوعة من قرون الغزلان التي لا يشترينها إلا النساء الموسرات.

امتطى الأمير صهوة فرسه وترك المنازل غارقة في ضوضاء الغجر وصخب البيع والشراء وعند بركة ماء محفورة في الصخر التقت عيناه

بعينيها ، هاتان العينان المائلتان إلى أعلى على نحو يدل على تفاؤلها الشديد وربما أنها لا ترى من الدنيا إلا زهورها وأطيارها المترنمة ، وتلك الأهداب الطويلة التي تتجعد إلى أعلى وتحديقة عينيها تحديقة عيني عاشقة كبيرة واسعة الخيال في شؤون الحب وذلك الامتداد العريض المقوس لحد شعرها الغزير المتناثر والمتلوي كالأفاعي. وأكثر ما يثير إعجاب سمهر أنفها الآسر أنف مستقيم وصغير يتناسب مع جسارة نظراتها وشكل فمها الذي يدل على استعدادها الدائم للضحك والنطق بكلمة يا مرحب .

ودخل الأميرُ «سمهر» خباء «روض» وبعد أن استقر في جلسته ، قال لها : ناوليني الربابة وحملت إليه أغرودة الصحراء ، وشرع في دوزنتها ، ثم أنشد بصوت حزين :

هَلَكْ شالوا .. علامَكْ هونْ يا «شيرْ»
وخلّولكْ عظامَ الجِزرْ يا «شير»
ولَوْ تبكي بكلّ الدمعْ .. يا «شير»
هَلَكْ شالوا على حُمصْ وحَماهْ ..

وسألته «روض» : ما هو شير الذي غنّيتَ له ؟!

فاعتدل «سمهر» في جلسته ، وتطلّع من فتحة في باب الخباء حيث البعيد .. البعيد ، ثم اتجه إلى روض قائلاً :

ـ كان في عشيرة «ألْحِسَنَهْ» رجل يدعى «عبد الله الفاضل» وكان من خيار العشيرة وشيوخها ، ويجمع في نفسه كل الصفات التي يفاخر بها العربي من شجاعة وكرم وإباء وحماية الجار .. وفي أحد

الأيام أصيب بمرض الجدري، وتفشّى في كل جسده، وما نفعت الأدوية والأعشاب في شفائه، وكان من عادة العرب آنذاك أن يتركوا المريض المصاب بمرض سارٍ في مكانه.. وهكذا رحلت «ألحسنه» وخلّفوا «الفاضل» طريح الصحراء، بعد أن ذبحوا له ناقة سمينة، وتركوا معه كلبه الوفيّ المسمى «شير».

ومرت أيام وأيام إلى أن قيّض الله له جماعة عابرين، فاحتضنوه، وعالجوه من مرضة حتى شفي، إلا أن «الجدري» بدّل أغلب ملامح وجهه، وبقي مدة طويلة عند هؤلاء الجماعة، ثم انتقل بعدها إلى أحد كبار الجزيرة واسمه الشيخ «تمرباش» وأخذ يعمل عنده في صنع القهوة المرّة وتقديمها للضيوف، وتصادف أن وجه إليه الشيخ في إحدى الليالي كلمة نابية فكتم غيظه وآلامه، وراح في هدأة الليل، والناس نيام، يرسل أشجانه وتباريحه أبياتاً من العتابا كلها تبتديء بكلمة (هَلي).. وأفاق الشيخ من غفوته، وسمع، وفي الصباح سأله عن أهله، فأسمعه أبياتاً تحكي صفاتهم وأمجادهم ومفاخرهم وعاداتهم... وقام الشيخ بالتقصي، وعرف أنهم عشيرة «ألحسنه».. فاعتذر إلى «الفاضل» وأعزه كثيراً، ورغب إليه أن يبقى عنده، ولكنه لم يرضَ، ورحل، واستقر في منطقة قريبة من أهله الذين كانوا يقطنون أغلب أيامهم في بادية حمص وحماة.. ومعه كلبه الوفي «شير».

وحين تناهى الخبر إلى أهله بوجوده حياً، قاموا بزيارته، وطلبوا منه الصفح والسماحة، ولكنه أبى، فقال أحدهم:

ــ اعرضوا الظعائن أمامه عسى أن يحن لحياة البادية..

وبالفعل توافدت الإبل ومواكب العشيرة، وشرعت تمرّ من أمامه، وأخذ الفرسان يلعبون على الخيول ويحيّونه، مما هاج في نفسه الذكريات، فعاد إلى أهله كما تعود العصافير إلى أعشاشها بعد رحيل طويل .. طويل، وما أحلاها من عودة !!.

وتطلّع «سمهر» من جديد في وجه «روض» وحيّاها بابتسامة عذبة عائداً إلى فتنتها الآسرة وسحرها الطاغي بعد أن غنّى لها الوفاء، وغرد لها الحنين، وشدا لها الشوق .. ثم قال لها :

ـ آخر مرة رأيتكِ فيها كانت منذ ثلاث سنوات علمت بعدها أنك تزوجت ومات زوجك غرقاً بعد أقل من عام ماذا فعلت بعد ذلك ؟

ردت عليه بلهجة فيها الكثير من السخرية :

ـ اختبأت في حضن حمامة ورويت حكايتي للغمامة. قالت هذا واقتربت منه محدقة في عينيه برجاء وتوسل رد عليها وقد عرف تماماً بأنها تقصده هو بكلامها :

ـ وبماذا نصحتك الحمامة.

قالها سمهر أيضاً بسخرية واستدار مولياً لها ظهره في حين صاحت به قائلة :

ـ لِمَ استدرت أريد أن أرى أعماق عينيك إني أحس هذه المرة بأن شيئاً غير مألوف قد سكنهما.

وبينما بقي هو صامتاً تابعت كلامها بلهجة متوسلة :

ـ هل نسيت أوقاتنا الغرامية ؟!

ـ كان ذلك في الماضي.

ابتعدت عنه بمقدار خطوتين وقد ارتسمت على شفتيها ثورة عاتية يتلاقى فيها شعوران غامضان ، وتتّحد رغبة الاشتهاء بالغضب المصطنع الذي تلوح من ورائه مشاعر جامحة قلّما تقدر امرأة في مثل سنّها على إخفائها ، وبعنف عصفت قائلة :

ـ نعم أيها الأمير أعرف بأنك لم تهوَني ، بل كنت تعبث ، وقد كنت سعيدة باللحظات الغرامية العابثة التي كنا نقضيها معاً .. كنتُ سعيدة بالقُبل التي كنتَ توزّعها على شفتيَّ ظمأً لا يعادله ظمأ الرمال المنسابة أمام ناظرينا .. كنتُ سعيدة وأنا أستلقي على ذراعيك سارحة في دنيا قصية كالخيال الجامح أكتشف فيها ما لا يستطيع الواقع أن يحققه ... أريد أن أبقى غارقة ، مستلقية على زنديك وأنت تكسر ذلك الغصن العنيد الذي طالما قاوم الرياح .. كنتُ سعيدة ، وما أصعب أن تصوِّر حدود السعادة التي تغمر قلب امرأة وهي تغفو على زندَيْ عشيقها ..

صمتت ، واقتربت أكثر لتحدق في عينيه بإصرار كأنها تريد أن تكشف خبيئة قلبه ، تريد أن تدفعه إلى الصياح بسره المكتوم ، ومجدداً عادت تتكلم :

ـ إني أرى حرقة العشق تتوهج في جوف عينيك .. أجبني من التي استأثرت بسكنى فؤادك ..؟ هل لها شفتان سكبت فيهما الصحراء أسرارها ؟ هل لها عينان واسعتان لكل أحلام الدنيا ..؟ هل لها خصر يميس مع النسمات الوانية ..؟ وهل تستطيع أن تحقق لك الدفء والسحر والنشوة مثلي ..؟!

أشاح ببصره عنها ليحدق في أفق بعيد جداً حيث أسراب الطيور تحلق غائرة بين السحب كأنها تريد أن تفنى بين ثناياها البيضاء.

تابعت روض الكلام بثقة كبيرة:

- يبدو أنها أجبرتك على تذوق مضاضات الحب.. ابتعد الأمير بمقدار خطوة عن روض وكأنها بكلامها هذا فجرت سيلاً من الأحزان.. بقي صامتاً في حين تكلمت روض بشيء من الحنية:
- حسناً لا أحد يستطيع الاعتراض على مشيئة القلب.. كما أني أحب تضميد جراح قلب كليم فمن دون حب جديد ينعش صدرك ستكون الحياة عبئاً لا تقوى على حمله هل أحببتها؟.
- نعم أحببتها ذلك الحب الذي لا تحده أية تخوم لكنه حب كتب له أن يبقى مطموراً بقلبي.

وبغضب قالت:

- إذاً خر قلبك ساجداً مذبوحاً، لكنها وبروية أردفت تقول:
- ستتمكن من التملص يوماً من ذكراها ثم انبرت تنشد بنغمة متسربلة بالإغواء:

كلمة أحبك اعتلت صهوة الرياح
لا ينفع مع عشقي أمضى سلاح
سأنهل من موارد الغرام فهو مباح
وأخط كلمة أحبك على الوشاح
تعال يا حبيبي
ألست جميلة كزهر الأقاح؟

وأنا في الحب لا أعرف المزاح
رغم أني أعرف أن هواك ذبّاح

سمع سمهر أغنية روض وهو يحدق في عينيها ويراقب حدقتيها وكيف ينعكس فيهما الضوء كالبلورة يتلألأ ويتلاعب مع وهج الشمس بخفة غريبة عينان يسكنهما جنون لا ينتهي ولم يدهش سمهر حين أعلنت روض بأنها ستنتظره الليلة قائلة :

ــ لدي شيء أكثر من شفتي الثريتين بالقبلات أنتظرك الليلة يا قمري المحبوب .

دلف سمهر إلى ربعة البيت وكلمات روض تتراكض في ذهنه مباح وهي بالحب لا تعرف المزاح اضطجع على سجادة حمراء قاتمة وسرح ببصره في سقف بيت الشعر الأسود الذي يتسرب منه الضوء على هيئة نجوم دقيقة فيبدو كقبة السماء ليلاً مزينة بنجوم لا تحصى وعاد لعواطفه وأفكاره المتقاتلة والمتناحرة .. هوى فاطم ، وروض التي بكلماتها أيقظت شهواته التي لجمها بشدة منذ اليوم الذي وقعت فيه عيناه على فاطم .. فاطم .. ردد اسمها بصوت مسموع ثم عاد ليحاور ذاته بصمت : فاطم التي اقتادتني إلى عالم الحب الطاهر وسرعان ما حضرت إلى مخيلته صورة فاطم عندما رآها لأول مرة .. كانت متدثرة بعباءة سوداء لامعة تغطي مؤخرة رأسها وقد انسدلت العباءة على قوامها متثنية بدقة ومظهرة معالم جسدها .. فهناك شيء ما حافظت عليه غامضاً ومحجوباً ومشتهى كزهرة تتكتم بعطرها ولطالما اشتاق إلى تنشق الشذى الذي تضمره . وشعرها الغزير والمفروق من المنتصف وتلك الدبابيس الذهبية التي استقرت فوق الصدغين تزينها فصوص الفيروز الزرقاء ..

كيف له أن ينسى النظرات السادرة[*] لعينيها اللتين فيهما أحجية تضج بالجمال .. لكنها الآن مع جراح أثارت هذه الفكرة غيظه .. سأذهب الليلة .. روض هذه المرة تعدني بالكثير .

قرر سمهر قراره هذا وكأنه يريد أن ينتقم أو ربما يريد أن يرد ضربة القدر المؤلمة التي حرمته فاطم .. وربما أكثر من ذلك كله أنه لم يعد قادراً على أن يكبح جماح فورة شهواته التي تحرشت بها روض بوقاحة وجرأة فقد انهد صموده وصرعه الإغواء وغدا على مشارف الإثم .

وقبيل الغسق وفجأة صاح الرعد وتعبست السماء وبعسر رشت سحابة زخات مطر ثم مالبث الغيم الأسود أن بسط سلطانه ، واستولى على السماء الغضب وبين ثناياها لمع البرق يسانده رجيف الرعد ، ويالها من ليلة مرعبة تلك الليلة التي يتحالف فيها البرق مع الرعد . وانبرت الغيوم تصب ماءها وأسلمت العاصفة قيادها للريح .

أمضت بيوت الشعر تلك الليلة تمتعض لسماع الرعد متشبثة بأعمدتها التي ارتعشت مذعورة من زفير الريح وفجراً كف البرق عن تقطيع أوصال السماء والرعد لزم الصمت والريح هدأت خواطرها ولبثت ساكنة وبملل راحت الأرض المنهوكة تمص ماء المطر وتوارت الغيوم القاتمة بعدما أمضت ليلة كاملة تتبارى بسكب المطر .

خرج سمهر من خيمة روض بعد أن أمضى معها ليلة أطلق فيها العنان لشهواته ونهل من موارد الإثم وسقط في مهاويه مع روض التي استقدمها القدر ليزجها في حب أثيم .

ـــ لقد أثكلت العاصفة الأرض معظم زهورها . هذا ما قاله الأمير حين نظر عند قدميه حيث زهرة في ميعة الصبا أردتها العاصفة قتيلة .

(*) السادر : المتحير .



على ركام لأحجار دارسة انتصبت بومة تتفرس صفحة الليلة القاتمة ترتاد بروج السماء ببصرها النافذ علّها تعرف طالعها .
لكن من قال إن القدر أودع أسراره النجوم ؟.

❁

في اليوم التالي غادرت جموع الغجر بحثاً عن الرزق وظهراً وحين اعتلت الشمس عرشها المهاب كان سمهر مضطجعاً يراقب الفرس زوفا وهي تدور بقلق رافعة ذنبها وتنظر باستمرار إلى خاصرتيها ثم تستلقي حيناً على الأرض ثم تنهض باضطراب إنها ولابد أعراض الولادة وهي على هذه الحال منذ الفجر ولن يطول بها الأمر أكثر من ذلك وسرعان ما تهمهم بحبور عندما ترى وليدها .

التفت سمهر إلى جانبه حيث اضطجع مناور غافياً وبفظاظة مرحة ناداه سمهر صائحاً :

ـــ أيها الكسول قم إلى فرسك أظنها ستضع مولودها . فتح مناور عينيه ونهض بتراخٍ وطلب من حبشان القهوة التي كان شذاها يجول في أنحاء الربعة .

قال مناور :

ـــ لكم خشيت أن تلد الليلة الماضية حين السماء أعلنت فجأة عن غضبها لذلك لم أجسر على النوم وكنت أتفقدها طوال الليل الذي كان يحفل بتهديدات غامضة لأولئك الذين كانوا يتمتعون بأوقات آثمة فأغضبه مرآهم وعكر صفوه .

قال مناور هذا بنبرة تدل على أنه يخص سمهر بكلامه رد عليه الأمير :

ــ إني أدرك ما تنشده من وراء كلماتك .

ــ ليتك يا رفيقي تضع عواطفك وراء ظهرك وتفك قيد عقلك من أغلال قلبك .

ــ أيه أيها القلب المسكين إنك أمام محاكات العقل تبدو كالغزالة أمام الأسود الغلاظ القلب ، سارع إلى فرسك فقد بلغت آلام الولادة ذروتها .

حين ذهب مناور أغمض سمهر عينيه وانبرى يحدث نفسه :

ــ أين الهدى وأين الضلال ؟ هل اهتدى من تأمل ما يجري من حوله بحكمة عقلية بالغة تتجاهل ما تولع به دخيلتنا ؟ وهل ضل من توثقت علاقته بقلبه وعواطفه ؟ ألا نستطيع أن نحافظ على ما تحوزه صدورنا سليماً معافى .

تناهى إلى سمعه صوت عذوب الذي يضج صخباً ومرحاً فقرر أن يختلس نفسه من أفكارها ويذهب إلى المحرم حيث عبث عذوب الذي لا يهدأ .

وما إن ولج المحرم ورأته عذوب حتى صاحت بصوت عالٍ :

ــ أيها الأمير قد أبصرتك يوم أمس وقد أحاطت بك حزمة من الغجريات ماذا هل أفشين لك أسرار طالعك وبصوت أعلى رد عليها سمهر :

ــ قد أفتك يوماً بلسانك هذا ذي الشعب الثلاث .

ـــ وأنا لكم أتوق لمرأى إحداهن تفتك بفؤادك هذا ذي الخلجان الكثيرة والتي تموهها بعباءتك الحريرية .

ـــ أماه إن لك ابنة ميالة إلى الظنون وتمتلك ذهناً واسع التخيلات ولساناً ينفر من الهدوء ولم أجده يوماً إلا وقد فر من عقاله .

ـــ أماه إن لي أخاً لا يكف عن غمري بافتراءاته ولا يخاطبني إلا لوماً ولا ينوبني منه إلا التوبيخ .

ولم تكمل عذوب كلامها لأن أخاها رشقها مازحـاً بحصاة صغيرة كانت قدامه ثم خاطب شميم التي كانت تجلس قرب خدرها(*) وتحمل مرآة ومشطاً .

ـــ أين هي شميم فقد أنهكتني عذوب بمشاكستها . ردت شميم التي وضعت كلًّا من المرآة والمشط جانباً وقالت بصوتها الأبح :

ـــ ههنا حيث أنتعش لسماع صوتك يتردد بيننا أيها الأخ الغالي .

ـــ أرى أن وجهك عامرٌ بالحبور وألمح بعينيك ومضة جذل لم أعهدها قبلاً .

ـــ إنه الربيع الذي يحوطنا باخضراره يرتاح له خاطري وينشرح له بصري .

ـــ إذاً فلتغدق عليك الحياة أياماً فيها اخضرار الربيع الذي تحبينه .

قال هذا ومد يده حيث مرآتها التي وضعتها جانباً منذ قليل وأخذ المرآة بيده وراح يتأملها بافتتان في حين شميم التي أخذتها رعشة وجل مريبة بادرت للكلام على عجل :

(*) الخدر : هو قسم من المحرم يخصص للفتيات ولكل فتاة خدرها وهذا لا يكون إلا في بيوت الشيوخ والأمراء والوجهاء .

ـــ إنها مرآة ابتعتها من إحدى الغجريات .

صاحت عذوب كعادتها :

ـــ إن تلك الغجرية لابد أن تكون قد سرقت هذه المرآة الثمينة من أحد ما .

خطا سمهر مبتعداً عن شميم ومتأملاً لتلك المرآة التي كانت من الفضة وبمقبض على هيئة غزال ومنقوش على خلفيتها فتاة حسناء في يسراها مرآة وفي يمناها رمانة جالسة على كرسي فاخر مسنده الخلفي طويل ، أما المفاجأة التي خطفت بصره وعقله فكانت الكتابة الدقيقة المحفورة بإتقان وراح يقرأ سراً ما كتب فقد نقش عليها قصيدة تقول :

لك حسن الفاتنات
وكل أبهة الملكات
عيناك زرقة فيروزات
وبحة صوتك ترنيمة الربابات
لشفتيك قرمز الياقوتات
فؤادي مسجور(*) بعذابات

قرأ سمهر هذا وقد خيمت عليه الدهشة ثم انتقل ببصره إلى المقبض الذي زين أيضاً بكلمات تقول :

من عينيك تتدلى عناقيد النجوم
أنفاسك فيض عطور
وربي ما درى بعشقنا إلا القمر السّاهر

(*) مسجور : مملوء .

لاريب أن هذه المرآة قد شغلت لأجل فتاة لها عينان زرقاوان وليس في كل العشيرة فتاة بعينين زرقاوين إلا شميم هذا ما دار بخلده .. رباه من أعطاها لها ومن بعثها إليها تذكر سمهر ذلك اليوم الذي جاءه فيه مزود متهماً شميم بعشقها لرجل غريب .. كل هذا حرك دبيب الشكوك بصدره .. ما أبأسني إذا كان هذا صحيحاً أعاد سمهر المرآة لشميم وقد تعرت ملامح وجهه من المرح الذي كان عليه منذ قليل .

امتطى صهوة كهرمان وغادر البيت لعله يهرب من وساوسه التي أثارتها تلك المرآة الفضية وألقت عليه أعباء الشك وتملكته هواجس الظنون .

ارتأى أن يلحق برديني ومن معه من البازيارية الذين قصدوا صيد الكراكي(*) .

راحت كهرمان تعدو فوق السهول المجللة بالعشب الذي هاجمته قطعان الماشية بنهم في حين عكفت الجمال على التهام البابونج أكلتها المفضلة وتناثر الرعيان بين قطعانهم مضطجعين بكسل فوق عباءاتهم الثخينة حيث تألبت عليهم الشمس بدفئها فحفزتهم على فتور الهمة .

قرر سمهر أن يسلك مسالك غابة الطرفاء عندما رأى الحمير العائدة منها محملة بحطب الوقود فتبادر إلى ذهنه أن يقوم بنزهة عبر البرك والجداول المحاطة بأجمات النبات والتي تزخر بالطيور المائية ، يحدوه إلى ذلك رغبته الملحة في أن تستكين نفسه إلى مكان يخلو من

(*) الكركي : من الطيور المائية الكبيرة .

البشر ويخفف العبء عن هذه الروح المحتاجة دائماً إلى نغمة حنونة تطلقها حنجرة حمامة وهذا القلب المحتاج دائماً لأن يعلن عن اسم المعشوق الذي يسكنه وكثيراً ما يعجز عن ذلك فيكمد محزوناً .

سار بمحاذاة النهر إلى أن بلغ أطراف الغابة ، وترجل عن كهرمان ليرافقها مشياً وولج الغابة من أحد الممرات الكثيرة التي صنعتها الخنازير البرية وكان الممر الذي انتقاه من أوسع الممرات لأن البدو اعتادوا الاحتطاب من على جانبيه فغدا درباً يسهل على الخيول المشي في خلاله .

وبخطا وئيدة سار سمهر متمنياً أن يفوز بمشهد يلبي نداء روحه للراحة لعلها تتملص من بعض وساوسها الكثيرة ، على جوانب الممر كانت تتزاحم نبات صريمة الجَدْي في حين خرب سكون الغابة شغب طيور العقعق التي تصيح ما طاب لها وتعيش برخاء بين أحضان الطرفاء كان الأمير يمشي في خلال الممرات وكأنه أضاع شيئاً ويدأب بحثاً عنه وينشد شيئاً لا يدري ما هو .

وقبل أن يقوده الطريق الذي يسلكه إلى خارج حدود الغابة انعطف سمهر يميناً وسلك ممرّا ضيقاً بالكاد يسعه مع فرسه التي راحت تنسل وراء فارسها بمهارة عبر المسالك الضيقة وبينما هو كذلك قادته خطواته إلى مصادفة رائعة . ففجأة شرعت الغابة أبوابها أمام سمهر فإذا به يتواجه هو والجمال وجهاً لوجه ويتلاقى مع سرب من طيور التم . احتلت جدولاً فيه ماء راكد أحاطت به نباتات مديدة القامة تضافرت بين بعضها بعضاً فغدت سياجاً خرافي التلوي . كانت طيور التم كالحوريات تطوف همساً حيث ترتعش صفحة الماء في منتهى الهدوء .

طالما أحب الأمير هذه الطيور الرفيعة النسب صاحبة الهيئة النبيلة والبياض المبهر الذي يسمو على بياض السحاب وعيونها التي يلمح منها وميض عتمة الليل لابد أن طيور التم صاحبة سمو ملكي بين الطيور الأخرى .. تقدم سمهر ووقف على عتبة الجدول الساكن لحد يدفع المرء إلى أن يخلع نعليه كيلا يتطفل على خلوة الحب التي تحياها طيور التم في هذا الجدول حيث تهنأ بغراميات وعناق لا ينتهي .

وعلى وجه الماء تنساب كأنها في حفلات راقصة ، لا ينقصها إلا كؤوس الخمر ، وكم هي خلابة المنظر أرياشها المخضلة بقطرات الماء وهي تتهادى فوق الماء تحف بها ورود زنبق الماء المسجى على سطح الجدول .

أنى للأوجاع أن تتسلل إلى أبدانك البيضاء أيتها الطيور في حين يمر عليك الزمان وأنت في غرام لا ينتهي إلا بنهاية الحياة لشد ما أحسدك يا طيور التم .

هذا ماكان يحدث به نفسه وهو يرنو إليها من دون أن يروي ظمأه من مرآها .

قرر سمهر الخروج من الغابة بعد أن أمسك به جمال طيور التم طويلاً ورد له بعضاً من هناءة روحه التي كانت تنوس تحت وطأة الظنون .

خرج من الغابة وارتقى مرتفعاً صخرياً تغطيه أكمة كثيفة من الأشجار يرسم حدودها منحدر صخري عميق يطل على نهير هادىء المجرى يحاذيه من الجانب الآخر سهل متسع احتله رديني والبازيارية وأعلنوه برجاساً للصيد وقف سمهر على نتوء صخري يطل على السهل

حيث وافى ابن أخيه بنظره وتناهى إلى سمعه صدى صيحاته المتحمسة ووقع حوافر حصانه التي لا تهدأ وقد ارتمى في خضم الصيد متولياً قيادة الدفة بمهارة . في حين حلق شاهباز وقد شحذ أقصى همته فوق الكركي فليس هناك باز أجدر منه بصيد الكركي .

بفخر قال هذا لنفسه سمهر الذي اكتفى بأن ينضم إليهم ببصره راحت عيناه تطاردان طائر الكركي وقد تسلط عليه الباز بمنسره المسنون في حين راح الطائر المسكين الكركي يلوذ بفرار ميئوس منه فقد تواثبت الكلبة نيرو تحت شاهباز بفقزات عالية ومالبثت أن بادرت الكركي بعضة أذعنت لها روحه على عجل ذلك أن شاهباز كان قد استل منه كل مقاومته .

غادر سمهر الربوة الصخرية وعاد أدراجه إلى المضارب بعد أن أخذ حصة لا بأس بها من السكينة التي ابتغاها كانت الشمس ترنو بعيون أثقلها النعاس وآن أوان مغيبها ومالبثت أن دلفت إلى فراش نومها تاركة وراءها أوشحة اختلط فيها اللون الأرجواني مع البنفسجي وطغى الأحمر الناري بشدة . وحومت في السماء غربان الغداف والحدايا بكثرة والإبل سارعت الخطا عائدة إلى المضارب تصحبها الأغنام وحملانها .

بينما كان سمهر يترجل عن فرسه أومأت له أمه بأن يمر عليها بالمحرم قبل أن يخلد إلى ربعته ويصرف الليل مع رجال عشيرته الذين ينتظرونه بالربعة .

وقفت الأم قبالة ابنها وقد حملت تعابير وجهها كثيراً من الكلام وبجمود حدقت به من دون أن ترد تحيته .

ابتدأ سمهر بالكلام بعد أن أثارت نظرات أمه ريبته وخشي من أن يكون قد فضح أمره مع روض .

ــ فيم تحدقين؟

ــ أولى بك أن توطيء رأسك خجلاً مما فعلته .

ــ وم تُراني أوطيء رأسي ؟

ــ من جراح .

ــ إني لا أفقه ما تحت حجب كلامك هذا .

ــ وهل نسيت حين وليت ظهرك للشيم النبيلة وتعمدت أن ترفع صوتك كي يسمعك شلاش ابن عم جراح وأنت تصيح بأنك تحارب من أجل زوج المرأة التي تحبها .

ــ نعم قد فعلت .

ــ ليتك لم تفعل .

ــ أتمنى عفوك .

ــ ليس بعدما حصل .

ــ أماه رويدك قليلاً أي أمر هذا الذي وقع ويستأهل كل هذا الصخب ؟

ــ يشق علي أن أخبرك بنفسي لكن هاك ما حصل فجراح بلغه ما تفوهت به عن قصد ليلة كان شلاش نائماً في ربعة بيتك ومن يومه أعاد فاطم لأبيها وأرسل معها يقول لوالدها : اعلم أن العار يتهددك إن لم تزف فاطم لسمهر وأخبر سمهر بأنني لا أفرط بإخوّته من أجل امرأة .

ــ رباه وكيف أرخى القدر قبضته وأطلق سراح سعادتي كيف هبت من مرقدها بعد أن قنعت أن حظي منها أعجف هزيل .

وبلهجة عنيفة موبخة ردت عليه الأم :

ــ أوتظن أن القدر يغتفر لك ما فعلته ؟ فمن أجل سعادتك سلكت طريقاً زرياً هل تنتظر مني أحسن الثناء ؟

ــ أفسحي لي مكاناً من حنيتك فقد ضجرت من أن تكون أيامي بقعة مهجورة من الورد .. أماه انظريني بحنانك .

ــ ليت لعقلك أن ينأى بعيداً عن رغائب قلبك فلن يسرني أن يكون ابني رجلاً شجاعاً تخور عزيمته أمام غنج قلبه .

ــ من زف لك هذا الخبر ؟

ــ إنه بشر ابن خالك جاء اليوم في غيابك وبالكاد ترجل عن حصانه وأخبرني وهو واقف فهو لم يطق حتى شرب قهوتنا .

ــ وأنا لا أطيقه أن يشرب من قهوتنا .

ــ واأسفاه أي حقد بغيض يمكث بصدر ابني ؟

ــ وأي لؤم أوعز لشقيقك كي يزوج فاطم الجراح ؟

ــ أخمد من نار غيظك هذا كي يتسنى لك الاتفاق معه على المهر وأن لا يعدل عن رأيه .

ــ إن شقيقك لن يفعل هذا فليس بوسعه أن يعدل عن رأي أجبر عليه .

ــ تكلم عن خالك بلهجة مؤدبة أيها الأمير ثم هل غادرت الطيبة قلبك فهو الآن في وضع يسترعي الإشفاق .

ــ قد ذوت طيبة قلبي منذ زمن بعيد أما عن الإشفاق فأنا لم أكن يوماً من الذين يشفقون على أولئك الذين كانوا هم البادئين بالعداء .

ــ اطرح عنك خبثك وإن لم تفعل فإني وحق الله لن أكون لك أماً بعد اليوم .

ـ أماه فليصفُ خاطرك نحوي واعفيني من لومك وهبيني شيئاً من رحمتك وأتمنى أن لا تخيبي رجائي الذي إليك أرفعه بأن تباركي فاطم زوجة لي .

ـ رغماً عني أباركها لك وأتمنى من القدر أن لا يسد السبيل أمام سعادتك .

بعد يومين وليلاً بعد أن خلت ربعة الأمير من الساهرين وبينما سمهر في فراشه وقد أوشك أن يرمي نفسه بأحضان النوم تبادر إلى سمعه صوت هادىء فيه بحة يألفها . هبَّ من نومه وبتؤدة متناهية تقدم على أطراف أصابعه واقترب من الزرب(*) الفاصل بين الربعة والمحرم ورأى أن شميم ما تزال ساهرة مع عذوب التي بدا واضحاً أنها تقاوم إغواء الكرى بصعوبة .

استقر سمهر واقفاً بحيث يسمع ما يدور من كلام بين شقيقتيه لكن من دون أن تدرياه ومتمنياً أن يكون ما سيسمعه هو بوح أسرار رغم أنه يشك بأن شميم المتكتمة دائماً يمكن أن تبوح بسر ما لعذوب التي لا تأتمن على سر قط قالت شميم :

ـ هل عرفت بما كان وراء بشر ابن خالك ؟ ردت عذوب .

ـ نعم أو لم تدري بعد بما كان يريده بشر .

ـ بلى علمت وقد ساءني أن تكون أمنا غير مبتهجة لفرحة سمهر بفاطم بعد أن ظن أنه لن يستردها يوماً .

(*) الزرب : عيدان من القصب تربط ببعضها بخيوط من الصوف الملون وتجعل عالية لتفريق خدور النساء عن مكان الضيوف .

ـــ إني أوقن بأن أمي تعرف شيئاً لا نعرفه بهذا الشأن .
ـــ بشأن فاطم .
ـــ نعم إنها ولابد تكتنز سراً في دخيلتها .

يالعذوب الخبيثة قال سمهر لنفسه في حين تابع إرهاف سمعه لحديث الأختين لكن شميم لم ترد على عذوب بل كعادتها راحت تحدق في القمر وما حوله من نجوم تكلمت عذوب من جديد :

ـــ ومما أوقنه أيضاً أنك تتمنين لو تزفين عروساً لذاك القمر الذي لا تشيحين ببصرك عنه وبلهفة راحت شميم تناجي القمر من دون أن تلتفت لعذوب .
ـــ ليت بيتي هي تلك السماء موئلة النجوم . أتدري يا قمر لا يجاريه أحد باللمعان يا من تعتلي الكرسي السماوي منذ سالف الأزمان وترنو وترف ببصرك على العشاق كيف يمخرون عباب الآلام ليتك تهبط من العلياء لترتشف من سلسبيل الحب وأي أمر أعظم من هذا يحدوك للنزول عن عرشك أما إذا شقيت فإنك ستعود قمراً مفتتاً لا يكاد يضيء نفسه .
ـــ أختاه : إنك تحادثين القمر بلهجة مشبوبة تثير مخافتي أخشى أن نار الحب قد لفحتك وكلما تذكرت اليوم الذي باغتنا فيه مزود وهدد بقتل الرجل الذي زعم أنك تهوينه زادت ريبتي . أختاه افصحي لي أي سر يتوارى بين طوايا صدرك ؟ وأي رجل هو الذي بلغ جوف قلبك ؟
ـــ أبداً أسراري تعتصم بصدري ولا يبلغنها لا أنس ولا جن .

قالت شميم هذا بعزم مؤكدة كل حرف نطقته وقامت من مكانها وأوت لخدرها تاركة عذوب وقد أذهلها ما جاء على لسان أختها من كلام .

وهذا ما أصاب سمهر أيضاً فقد بهت لدى سماع ما تفوهت به شميم وعاد ليجلس قرب نقرة القهوة بعد أن نبذت جفونه النوم بعيداً وراح يحدث نفسه قائلاً :

ـــ ويلاه يا هذا السر الساكن خبيئة شميم من ذاك الذي بوسعه أن يدنو من جرة أسرارها وأن يلج من فوهتها فحتى عذوب الماكرة لم تفلح بالظفر بشيء مما تخبئة شميم .

صرف سمهر بقية الليل وهو يتلظى على لهيب الوساوس بعد أن شح أمله بأن تكون شكوكه بشميم غير مصيبة .



٦

اعلم أيها الإنس إذ ما القدر وهبك السعادة ومسرة القلب بيد فاحذر فإنه ربما انتضى باليد الأخرى خنجراً فاحذر احذر .. فللزمان سرائر وعبثاً نحاول أن ندرك ما يضمره تحت الدثار .

❀

انتفضت الرياح وقد ضمت بين جوانحها باقة من الروائح العطرة ، وراحت تنثرها حيث يحلو لها لكن كم يبدو هذا النهار غائماً فالشمس عاجزة عن الفكاك من الغيوم التي تضافرت فيما بينها ناسجة غطاء يحجب وجهها وفي السماء حلقت أسراب الإوز تطير وتصرخ أسراباً تلو أسراب يقودها توق أبدي إلى مغرب الشمس قالت عذوب لأمها التي كانت جالسة ترتشف القهوة .

ــ إنه صباح متجهم المحيا انظري على أي نحو التمت الغيوم .

بقيت الأم صامتة في حين تابعت عذوب كلامها :

ــ هذه الحشود من الغيوم تسرب الكآبة إلى نفسي حتى أني لا أحس برغبة في الكلام .

ــ أهلاً بالغيوم إذا كانت تهدىء من ضوضاء لسانك جاء صوت سمهر الذي وقف مستنداً على عمود ردت عليه عذوب بلهجة المشاكسة .

ــ أهلاً بالأمير الذي لا يعرف فوهُ النطق إلا بالكلمات التي تقدح شرراً .

ـــ احذري فإني قد أشد وثاق لسانك يوماً وأغلله بالأصفاد قال هذا والتفت حيث شميم التي خرجت لتوها من الخدر وقد ارتدت ثوباً أزرق غامقاً من المخمل .

رد سمهر تحية أخته وبقي صامتاً يحدق فيها كأنه يراها لأول مرة في حين هي جلست على طنفس(*) قرب الأم التي كانت مستمرة في الصمت على نحو يدل على تكدر مزاجها .

بادرت الأم الكلام قائلة :

ـــ إن خاطري يرزح تحت أثقال كبيرة .

رد عليها ابنها :

ـــ أماه إنك تتوهمين هذه الأثقال .

ـــ يا لشقوتي .

قالت الأم هذه الكلمة في حين كانت تهم بالنهوض لتغادر المكان تاركة أبناءها وكأنها لا تود أن ترى أحداً قالت عذوب :

ـــ لا ريب أن هناك أمراً تكتمه أمنا عنا .

رد سمهر :

ـــ إن أمنا صاحبة طبع ينفر من الاعتراف بما جرى وأصبح واقعاً وكي تبرأ من قتامة أفكارها يجب أن تمر أيام كثيرة قالت عذوب من جديد :

ـــ أخبرني متى عرسك فليس هناك أحلى من عرس أتيح له أن يتم خلال الربيع فالبادية لا تتجمل إلا في أشهره .

(*) الطنفسة : واحدة الطنافس ، نوع من أنواع البسط .

ـــ ليت ذلك لكن التعجل لا ينصح به مع خالنا الهبرج .

وجهت عذوب كلامها لشميم الصامتة :

ـــ ماله ثغرك ألا يقوى على النطق ؟!

ردت شميم :

ـــ بلى لكنه يخشى من أن يفترسه لسانك .

ـــ إني لأسأل نفسي عما إذا كنت صاحبة لسان جموح .

وبسرعة رد سمهر ضاحكاً :

ـــ إنه وحق الله سؤال أحمق .

قال هذا وعاد إلى ربعته .

في عصر ذلك اليوم تراخت قبضة الغيوم قليلاً وبحذر المتسلل أنفذت الشمس بعضاً من أشعتها وفجأة توالت الصيحات عالية وراحت الريح على عجل تصب أصوات المستنجدين بأذني سمهر الذي رمى فنجان القهوة من يده وهب إلى فرسه وفعل مثله كل من كان في الربعة وظهر رديني على صهوة حصانه قادماً من اتجاه المراعي وهيء سمهر نفسه لسماع نبأ لا يتمنى أن يسمعه . وبلهجة المستنجد صاح رديني :

ـــ واعماه فلتسارع إن الوهبان غزوا إبلنا في المراعي فهرب الرعيان وأخذ الوهبان الكسب ومن فورهم عادوا سأله مزود الذي اعتلى حصانه متسلحاً .

ـــ وهل تأكد لك أنهم من الوهبان ؟

ـــ نعم قد سمعهم الرعيان وهم ينخون(*) بعضهم «بأخي فطيم راعي السعدة» .

صاح الأمير بصمت : رباه إنهم الوهبان أيها القدر أعازم أنت على أن تتجرع الأرض دماً وأن يسطو نحيب النساء على مسامعي .

استدار سمهر حيث أمه خرجت أمام البيت وقال :

ـــ أماه قد غزانا الوهبان عصراً كي يدخل الليل دون أن نظفر بهم سنلحق بهم ونقاتلهم وإن هبط الليل فإنه لا بد للصباح من أن يحفل بمعركة دامية أراكم بخير وحين هم بالتحرك أبصر شميم وملامح وجهها تطفح فزعاً .. آه يا شميم تفزعين علينا أم على أبناء خؤلتك .. لكم يثير وجلي ذلك الذي يزمعه القدر في آخر المطاف .. وكم أمقت أن يمس سيفي دم مشعل الذي يجري أيضاً في عروقك .. بهذا كان يهمس لنفسه وهو على ظهر كهرمان ومن حوله قد تدافعت الخيل تحت فرسانها الذين يطلبون دم الوهبان الذين سلبوا الراجح كثيراً من إبلها وراحت ألسنتهم تغني الحداء الحربي .

* *

(*) النخوة : وهذا ما يسمى بالاكتناء أو النخوة عند البدو ولكل مبارز شعار ينادي به في ميدان الحرب وفي الانتخاء يعرف الفارس بنفسه في ساحة الوغى بلقب يدل على عشيرته .

7

أيتها الشمس المتجهة نحو المغيب هدّئي من خطاك
ولتسكتي أيتها الطيور وكفي أنت أيتها
الريح صاحبة اللهاث الأبهم.
فبأعلى نبرات النطق ستهزج النخوات
ويرغي الحداء ويزبد
ويعترك الفرسان وتهوي الدماء تجهر
ثأراً
وأنى للقدر أن يلسع اللسعات اللاعجة
إلا بخضم الحروب
في حين الزمان يومىء له بصمت.

❀

اجتازوا نهراً وراحوا يصعدون هضبة وعرة انتهت بسهل فسيح تتخلله النجاد الصغيرة وهناك تواجه الفريقان بعد أن أرسل الوهبان كسبهم في طريق أخرى في حين بقي منهم الخيالة لمواجهة الراجح الذين يساوونهم عدداً.

حوافر الجياد احتملت الغبار عالياً وراحت الرماح تكدح في سلب الأرواح وكل رمح يصبو إلى أن يريق دماء أكثر من الآخر واصطخبت السيوف تتنافس وتجابهت القوى والعزائم في خضم المعركة التي اضطرمت نارها وراحت الأفواه تتسعر بالنخوات وتعالت نخوة الراجح (أخو الهنوف) راعي الشنوف على نخوة الوهبان: (أخو فطيم) راعي السعدة.

وفي حين جذب سمهر رمحه إليه ووقفت كهرمان محجمة عن التقدم وقفت قبالتها فرس رمادية اللون يعتلي ظهرها الأمير مشعل وللمرة الثالثة يتواجه فيها كل من سمهر ومشعل كعدوين يتحاربان بعنف وللحظة تفرس كل منهما في وجه الآخر ومرة أخرى تأبى سمهر أن ينازل مشعل ولم يَدْنُ منه بل أولى له ظهره وابتعد كي ينازل أحداً غيره. ومثله فعل مشعل فكل منهما لا يعترف بعداوته للآخر. ومرة أخرى أصاخ سمهر سمعه للصداقة التي جمعتهما منذ الطفولة.

وما زال الطرفان يهتفان كل بنخوته إلى أن أوصد النهار أبوابه وحل الليل مشرعاً مصاريعه وتوقف القتال وخيم كل فريق من جهته بانتظار الصباح حيث المعركة التي تعلن اسم المنتصر الذي ستحمله عشيرة الراجح أغلب الظن فقد رجحت كفتها كثيراً فعلى يد رجالها تجندل إثنا عشر قتيلاً من الوهبان التي خسرت ثمانية جياد أخذت كقلاعة(*) أما الراجح فقد اقتصرت الدماء بينهم على الجروح.

في مخيم الراجح كل رجل اضطجع قرب فرسه ومنهم من راح يقص على رفيقه كيف قتل فلاناً وسلب حصان فلان وكان أكثرهم جلبة مزود الذي جرح جرحاً خفيفاً على يد فضل شقيق الأمير مشعل وراح يقسم على أنه سيواجهه مرة أخرى ويقتله أما سمهر فقد كان له شأن آخر حيث انزوى إلى نفسه يخطط لأمر لابد له من أن يفعله حتى

(*) القلاعة: من عوائد البدو في الغزو أو الحرب أنه إذا طعن أحدهم فرداً من الأعداء أو أرداه قتيلاً أو جريحاً تكون مطيته ملك الطعان وتعرف تلك المطية بالقلاعة أي تكون من حق الذي أخلى سرجها.

لو اضطر أن يقوم به بنفسه فالفرس الرمادية التي كانت تحت مشعل ليست بالفرس السريعة وهذا ما لاحظه سمهر بسهولة فقد لمحها تلوح بذنبها أكثر من مرة وهذا ينبىء أنها فرس تعيا بسرعة ولكي ينفذ مخططه لابد له من أن تنجلي عتمة الليل الذي حجبت الغيوم قمره .

حتى عتمة الليل تتواطأ ضدي لكنني لن أطأطيء لها رأسي فما حيلتي أمام عاطفتي الصادقة نحو مشعل ولكم أمقت أن يحرم ابنه الذي يحمل اسمي من أبيه في معركة مع الراجح . وبينما كان سمهر مسترسلاً في أفكاره هذه لاح له الأمل فقد برز القمر واحتوى المكان بضوئه وتدلدل بريقه المفضض ووطيء العتمة بنوره وراحت قبة السماء تطفح نجوماً وتفيض شهباً .

وما إن بدد القمر الظلمة الداكنة حتى تبددت ظلمة أمله في أن ينفذ ما يجول في عقله وراح يفكر مقلباً بذهنه ما ينوي القيام به ويتركز ثقل تفكيره على الفرس البيضاء التي جاءت وراءه كجنيبة(*) فخطته مؤداها أن يكون بمقدوره إيصال الفرس خود إلى مشعل كي يمتطيها في المعركة التي صباحاً سيعلو غبارها من دون ريب فالوهبان أمامهم غداً معركة خاسرة وسيسهل على أي فارس يعتلي صهوة فرس سريعة مثل خود أن يظفر بالخلاص . لكن إلى من يوكل هذه المهمة ومن يساعده في إنفاذها جاب بذهنه بين فرسانه وراح يفرز كفاءات أولئك الذين لم يقتل لهم أي قريب بعد على يد الوهبان وفي آخر المطاف اهتدى ذهنه

(*) الجنيبة : من عادة الأمراء والشيوخ اصطحاب جواد غير الذي يركبونه في حالة السفر أو الحرب كاحتياط إذا ما فقد المطية التي يركبها .

إلى دارم الذي لن يرفض له طلباً وهو رشيق الحركة سريع الخطوات وواسع الحيلة وصاحب فطنة تليق بها أصعب المهمات وما لبث سمهر أن نادى دارم وأفضى له بما يجول في نفسه قال دارم :

ــ يا لمهابة قرارك هذا سأنفذه يا زين عشيرتنا وحق الله إنها مروءة لا تسعها الصحراء . لكن ألن يدرك أحد من رجالنا اختفاء خود غداً ؟ وإذا ما اعتلى الأمير مشعل صهوتها ألن تلفت الأنظار ؟

ــ ويل لمن يتجرأ ويعترض على أمرٍ يخصني أنا إنها مسألة بيني وبين مشعل وفي نيتي أن أبذل كل ما أقدر عليه كي أحول دون مصرع مشعل في معركة مع الراجح .

ــ إن مزود يصر إصراراً غريباً على أنه سيقتل فضل .

ــ إن مزود صاحب العقل الأجوف لا يفقه ما يتلفظ به لسانه أكمل سمهر مع نفسه يقول : ــ ليته يكون شهيد الراجح في معركة الصباح .

ثم هب سمهر واقفاً وقال لدارم الذي وقف أيضاً :

ــ سنتسلل سوية إلى مخيم الوهبان وأدلك عن بعد على مشعل فأنا لا أخطيء هيئته ثم توصلها أنت له وتقول له بأن خود هي من أنجب خيولنا وهي هدية من الأمير سمهر على شرف قدوم ابنك البكر ويطلب منك أن تعتليها غداً بدلاً من الفرس الرمادية ثم تعود إلى هنا حيث لن أتركك تغيب عن بصري .. هلم بنا .

اقتاد الأمير الفرس البيضاء وصحبه دارم في حين راح القمر يضيء خطواتهما المتئدة ويسعف بصريهما بنوره إلى أن أضحى مخيم

الوهبان قريباً منهم لا يفصلهم عنه إلا ربوة قليلة الارتفاع وقربها بقي سمهر ينتظر دارم بعد أن دلَّه على مشعل الذي اضطجع قرب فرسه متطرفاً قليلاً عن بقية المخيم مما سهل مهمة دارم كثيراً.

وعن البعد رأى سمهر كيف وصلت خود بهدوء إلى مشعل وما لبث دارم أن عاد دون أن يلفت إليه الأنظار قال دارم :

ـ يقول لك الأمير مشعل إنه لم يجد اسماً يليق بابنه البكر أكثر من اسمك ثم اكتفى بذلك ولم يزد لكن بدا واضحاً أن الدهشة هي التي أسكتته وحيرت لسانه بماذا ينطق.

في تلك الليلة بعد أن رفع سمهر شكره لله وللسماء ونجومها أتيح له أن يغفو وهو مرتاح البال بعد أن استطاع أن يتدبر أمر إيصال خود إلى مشعل من دون مشاكل.

مع أولى أويقات الصباح سرت شرارة المعركة لتفني هدوءه وطلعت الشمس وألقت وميض شعاعها على الرماح التي انقضت تتعارك والسيوف جاشت تتشاحن وأغارت الخيول تفر قطرات الندى من بين حوافرها وحتى الطيور كمت أفواهها فزعاً والريح احتبست أنفاسها وجلاً.

ودبت النخوات تتبارى من جديد وتفتقت الجروح تهدر وزاد عدد الجرحى من كلا الطرفين وعانى الوهبان من نضوب الحظ ولم يبق من عزائمهم غير النزر القليل واضمحلت همم خيولهم. وما كاد أن يرتخي الطوق الذي أحاط الراجح به الوهبان حتى قرّر هؤلاء الانسحاب بعد أن أدركوا أنهم مهزومون لا محالة فرأوا أن ينسحبوا مخافة

أن تدركهم رماح الراجح الذين بدورهم اشتدت على جرحاهم حشرجة الألم ولذعة الوجع فتركوا الوهبان لحال سبيلهم بعد أن علموا علامة الهزيمة على أبدانهم وما لبث أن ركد غبار المعركة وعاد كل إلى قومه وكان مزود هذه المرة جريحاً يقترب من الموت بعد أن جرحه فضل للمرة الثانية وقد احتد سخطه بعدما علم بما كان من أمر خود أما سمهر فلشد ما تمنى لو أن فضل أجهز على مزود وخلصه منه .



ففي خطو وئيد ارحلي يا مكرمات الربيع صوب
الزمان الآتي وارقدي طي السنة الجديدة .
فها هو ذا أيار ينضو عنه زهره الأخير والربيع لا يكون
إلا حين الورد يلفي فالصيف يتقدم يسبقه
وهج الشمس يتأجج والسراب يحبو
لكن الأديم دائماً يرنو إلى ربيع جديد .

❀

شرع الربيع يتأهب لرحيله بعدما نفدت معظم أيامه وأوشك أن ينضب زاده من الرياحين ودنت زهوته من أن تصبح باهتـة ، والصيف راح يرمقه بلفتات حارة بين الحين والآخر لكن الربيع ما زال بحوزته قوة تكفي بأن تجبر الصيف على أن يحقن حره وناره وفي سهل يمتد بين جبل عبيسان(*) وسبخة الخرايج(**) ضربت الراجح أطنابها بعد أن عبرت الفرات مرة أخرى لتتراجـع إلى الجنـوب حيث مرابعهـا الأصلية .

وقد بدا واضحاً أن سهل عبيسان قد استوفى حظه من سخاء الربيع في هذه السنة . أكثر من مئتين من الجمال حملت عليها الروايا والقرب(***) اتجهت إلى نبع الحمام(****) الـذي يبعـد أقـل من مسيرة

(*) جبل عبيسان : شمالي شرق مدينة حماة ٩٠ كم .
(**) سبخة الخرايج : شمالي شرق حماة ٧٠ كم .
(***) قربة : جمعها قرب وتصنع من جلود المعزى .
(****)نبع الحمام: جنوبي شرق مدينة حلب ١٠٠كم في السفوح الجنوبية لجبل الأحص .

نصف نهار عن عبيسان وعدد كثير من العبدات رافقن الجمال وعشرة خيالة مهتهم الحراسة .

كانت كل من شميم وعذوب واقفتين أمام البيت يرقبان الجمال التي غادرت لتوها من أجل جلب الماء . فكان المكان هادئاً إلى حد بعيد فحتى جلبة الكلاب المعتادة لم يكن لها أثر لأنها رافقت رديني والبازيارية إلى سبخة الخرايج التي تتوافد عليها طيور الكركي بكثافة وتوافيها الغزلان بكثرة ولم يكن هناك صوت إلا صوت العبد مبارك الذي يدرب صقراً يساعده عبدان آخران .

قالت عذوب :

ـــ أنت أيها الربيع خذني معك .. بهذه الكلمات لابد أن أفواج الطيور الراحلة تناجي الربيع الذي تأهب لسفره ولملم ورده وعطره واخضرار عوده فقد أفلتت منه أيامه .

ردت شميم بلهجتها الحالمة والمعتادة :

ـــ لابد من أوبة الربيع إليها

ـــ من هي ؟

ـــ الأرض إنه ليكفيها فرحاً أن الربيع لابد أن يرتاد ثناياها في كل سنة في حين نحن قد نمضي كل سنيّ عمرنا من دون أن يغزونا الربيع ولو مرة واحدة ليته يلج القلب وتسكنه الحشائش وتزينه الشجيرات وتركض فيه الغزلان وتجوب آفاقه أسراب القطا كما الصحراء ليته بصلابة أرضها الصلدة التي تتحمل عنف حوافر الخيول الجامحة والقبائل المتحاربة ووحوش الفلاة الضارية .

ــ إن أمر قلبك يحيرني

ــ أيا قلبي .

ــ أي شيء أصابه وهل يوماً أنست الأفئدة إلا للحب أداهمك الشوق ؟

ــ سأكون ممتنة لك إذا ما كففت شر لسانك عني .

ــ ألا تخشين مزود ؟

ــ ليس لأحد أن يستلب قلبي رغماً عني .

ــ يا لشدة لهفة نفسي على أن أعرف من هو الذي انتقاه قلبك وكم يخيل إلي أنه رجل غريب عن عشيرتنا وكم رجوتك أن تفصحي عن خفية صدرك ولكنك مراراً أعرضت عن إجابة سؤالي .

ــ إني لا أعرف بأية لغة يسعني أن أخبرك وبحق الله كفي عني إلحاحك هذا .

ــ لك هذا ولكن اعلمي ستخطو الأيام وتجتلي سرك الذي تدفنين .

ــ هل يطول غياب سمهر عند خالك؟

سألت شميم هذا السؤال كي تفر من إصرار عذوب التي أجابت رغم علمها بأن شميم تقصد أن تتهرب من أسئلتها :

ــ لا أظنه يبقى حتى هبوط الليل فمنازل عشيرة البراجس لا تبتعد من هنا كثيراً فهو إن قصدنا عصراً يبلغنا مع حلول المغرب .

ــ إن أمك مشغولة البال .

ــ خالي الهبرج من أعند الرجال وسمهر أكثر منه عنداً ولكنني أظن أن أخي من أجل فاطم سيقيد أعصابه بأصفاد حديدية ثقيلة وسيلبي خالي بأي مهر يطلبه ولا يبقى بعدها إلا تحديد يوم العرس .

ــ ليت ذلك .

قالت شميم ذلك وجلست على أحد الطنافس تصغي سمعها لنغمات الربابة التي كانت تأتي من الربعة حيث سنحت الفرصة لحبشان المولع بالعزف عليها مستغلاً غياب سيده وخلو الربعة من الضيوف فمكث وحده وانبرى يحزُّ أوتارها بالقوس يريد أن يرفه عن نفسه .

وسرعان ما عبثت نغماتها الحزينة بعواطف شميم وراحت أنات الربابة تجوب جوانحها وذوت عيناها دامعتين من دون أن يكون بوسعها أن تخمد ذاك الشيء المتقد في صدرها . نهرتها عذوب قائلة :

ــ إني أؤمل أن لا تطيل الدموع إقامتها على خديك وإلا أبصرتك أمنا .. أو هل الربابة قرعت أبواب صدرك ؟

ومن دون أن تستطيع شميم صدّ غمغمات الربابة المتألمة زادت دموعها تهطالاً وبسرعة دنت منها عذوب ومسحت لها دموعها بطرف ثوبها خشية من أن تراها أمها على حالها هذه . وقالت عذوب بعصبية :

ــ أي هياج تملك دموع عينيك؟ يا لحبشان الأبله .

ردت شميم بلهجة توسل :

ــ لا لا تذميه إنهما كانتا عيناي هما من تنشدان الدموع قالت هذا واسترخت كأنها كانت تكد بعمل شاق ثم تابعت تتكلم :

ــ لابد أن تلك الأنغام جاد بها الرب للأنام فالأنغام التي تنطق بها الربابة تلج الروح لأنها تشبهها فالروح لا يدركها البصر لكن أفعال أجسادنا تدل عليها وكذا الأنغام لا نبصرها لكنها تنساب من بدن الربابة وتترقرق رناتها على الأوتار لتسري لحناً وتتدفق نغماً وتدفع

حبات الدمع لتفر من سجنها وتنبت في أوردتنا الزهر وتداعب الوجدان وتدلف إلى سراديبه السحيقة وفي وسعها أن تحوز كل ما سكن وارتجف في قلب بشري وأن تراقص سرائرنا التي لا يدري بها إنسان .

وبلهجة تأنيب قال عذوب :

ــ لكن في المرة القادمة هذبي من دموع عينيك وإلا افتضح أمرك فلو أن أمي رأتك لأدركت أن تحوزين شيئاً ما بحشاك . قالت عذوب هذا ونادت العبدة سهرة أن تأتي بالقهوة لعلها تهدىء من حال أختها ثم قالت عذوب :

ــ أختاه مالك ومرارة الحب ؟.

ردت شميم وهي ترتشف قهوتها :

ــ إن مرارة الحب كمرارة القهوة فلولا مرارتها لما كانت لذيذة النكهة .

في هذه الأثناء خملت نغمات الربابة فبدت كأنها تهذي وما لبث حبشان أن أنهى معزوفته ووضع ربابته جانباً ومع الغروب عاد الأمير سمهر ومن معه من وجهاء العشيرة الذين رافقوه كجاهة لخطبة فاطم .

وكانت تعابير وجهه متهللة تنبيء عن نجاحه بما قصده وأعلن عن وليمة عشاء كبيرة وتوافد الضيوف إلى ربعة الأمير وامتلأت بهم أركانها وتعالت أصواتهم مهنئين ومباركين وبعد أن تناول الجميع العشاء راحوا ينشدون أغاني وأشعاراً تتغنى بأمجاد العشيرة ومعاركها ونصرها تصاحبهم الربابة التي تصدح أنغاماً راقصة وقام الأمير مع عدد من الرجال يحملون

السيوف ويرقصونها رعشاً إلى أن أعلن النعاس سطوته على جفونهم وغادر كل إلى بيته .

وعندما أوشك سمهر أن ينام فاجأته أمه تريد محادثته كي تستفهم عن المهر الذي حدد وعن الجو الذي ساد الخطبة .

ابتدأت الأم بالكلام :

ــ كيف حال خالك ؟

ــ إنه مثل غراب مسن فقد جلَّ ريشه بعد أن زج نفسه نتيجة حمقه في معركة شعواء أكبر من استطاعته بكثير ..

وقبل أن يتم كلامه همت الأم بالعودة إلى المحرم لكن سمهر استوقفها بعد أن أدرك أنه بالغ بثقل كلامه عن خاله قالت الأم :

ــ عندما يذكر خالك لا أجدك إلا كقدر فائر .

ــ أماه إن خالي حين زوج فاطم لغيري نكبني بشدة .

وبعد صمت تكلمت الأم :

ــ ما هو المهر الذي اتفقتم عليه ؟

ــ دوّن الخطيب خمسين ناقة وضحاء وفرساً كحيلة ومئة شاة وعبد وعبدة وقرأنا الفاتحة وتجرعنا حليب النياق .

وبسرعة قالت الأمر بلهجة ساخرة :

ــ فرس كحيلة وكيف لك أن تتنازل عن إحدى أفراسك فقد تحتاجها مستقبلاً كي تسللها ليلاً لمشعل ؟

ــ إذاً قد علمتِ بالأمر .

ــ كما أنني علمت أنك بعد أن قتلت أحد أبناء عم مشعل تركت فرسه[*] تذهب لتتبع خيل الوهبان وفعلت مثل ذلك مع جريحين آخرين من الوهبان .

ــ وهل هذا عار ؟

ــ لا لكنه تسامح كبير منك تجاه الوهبان قد يثير ريبة أبناء عشيرتك وربما حنقهم .

ــ لا أظن هذا كما أني قد فعلت ذلك كرامة لدم شميم الذي يجري أيضاً في عروق مشعل .

ــ مرة أخرى عواطفك زعزعت أعمدة عقلك .

ــ أماه إننا إذ ما خالفنا ما تريده أنفسنا تهدم شعورنا بالحياة نفسها وتصدعت سجيتنا وهذا ما لا يجب أن نسعى إليه يجب أن نبحث عن الطمأنينة التي تنقذ أرواحنا وهذا لا يتم بمخالفتها إنما بمراعاتها فإن لم نراعِ أرواحنا فمن نراعي ؟.

ــ ليتك تراعي خواطر رجال عشيرتك كيف لهم أن يستسيغوا طعم أمر كهذا وبيننا وبين الوهبان دماء لا تحصى حتى أن مزود لم يلج ربعتك منذ المعركة الأخيرة .

ــ ومن قال أن أمر مزود يستأهل أن يشغل تفكيري وما فعلته كان أمراً خاصاً بيني وبين مشعل وليس لأحد أن يحشر أنفه فيه ومن يفعل سأجدع له أنفه .

ــ إذاً عليك أن تجدع أنوفاً كثيرة .

(*) يعتبر من شيم الفروسية أن يدع الأمير أو الشيخ فرس عدوه الذي قتله أن تذهب إلى حال سبيلها .

ـــ إنك تتوهمين .. قد سمعت اليوم ورأيت كيف هزج الجميع وشاركوني فرحتي .
ـــ إنهم يتملقون .
ـــ غير صحيح وأثق بهذا فهم لا يكترثون لأمر خود بعد أن قدتهم في معركة منتصرة وحتى الجراح التي نالتهم كانت أقرب أن تكون خدوشاً ومزود فقط سفح دماءً كثيرة وتمنيت أن تجري دماؤه حتى آخر قطرة .
ـــ إنه ابن عمك وهذا عارٌ عليك . أتمنى لك نوماً هانئاً .

قالت الأم هذا بلهجة غاضبة جداً وعادت للمحرم بخطوات عجلة .

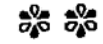
وحين هم سمهر بالعودة إلى فراشه سمع هسيس ثوب وراءه فاستدار ليجد شميم والانفعال بادٍ عليها وألقت نفسها بحضنه قائلة :
ـــ لقد جادت عليَّ الحياة بأخ يحسدني عليه كل بني البشر .
ـــ أختاه ألم تخلدي للنوم ؟

قال هذا وقد خامره الشك في أنها قد سمعت ما دار بينه وبين أمه من كلام في حين قالت شميم التي مازالت تحتضنه :
ـــ أعترف أن أذنيَّ قد ارتكبتا جرم التنصت وقد سمعت مادار بشأن خود ومشعل .

تركت شميم حضن أخيها الذي بقي صامتاً ينظر إليها بحيرة كبيرة في حين تابعت هي كلامها بتلهف :
ـــ لكم حفلت روحي بالفرح عندما أيقنت أنك لم تنسَ أن أمي من الوهبان ومازلت تحترم دمها رغم موتها منذ سنين ورغم أنها زوجة أبيك الثانية .

ـــ كيف لا أحترمها وقد أنجبت لي أختاً كشميم ؟
ـــ إن ما فعلته دين بذمة الزمن وسيرده لك فرحاً غامراً .
ـــ أظنه سيرد دينه بسرعة فأيام عرسي قريبة .
ـــ أتمنى أن تجود عليك الحياة بسحب بيضاء دائمة التسكاب سعادة وحبوراً ولا تكف أيامك عن تجرعها وأن يحوطك الزمان بدرع لا تخترقه سهام النوائب ولا تؤوب الأحزان إليك يوماً وليكتب على تأوهاتك المؤلمة أن تكون من الرواقد أبداً وليسكن الاطمئنان أغوار صدرك دائماً .
ـــ وأنت أتمنى من الحياة أن تجود عليك بأفراحها وأن لا تبخل عليك بالسعادة .
ـــ قد أخذت وقتاً من حصة أجفانك من النوم لذا أتمنى لك نوماً هانئاً .

عادت شميم لخدرها بعد أن تمنت له نوماً هانئاً .. إنها نفس الأمنية التي سمعها منذ قليل تخرج من بين شفتي أمه الغاضبة وشتان ما بين اللهجة التي تحدثت بها الأم وتلك التي تحدثت بها شميم .



٩

ندفٌ ندفٌ تساقطي يا أويقات السعادة
واتندي حين تطئين عتبات الصدر
ولتفيضي سيولاً عبر شرايين أفئدة تاقت
لك .
وعلى أديم الروح حري بك أن تشيدي
جواسق(*)
وبين الرواق والرواق تطوف حوريات الجذل
وترقص فوق السرادق(**)
وعبر أفنيتها تروح وتجيء هبات المنى نسائم .



أطلت الشمس بوجهها الوضاء ونكست أشعتها وسرح وميضها يتصبب تعكسه الرماح المشرعة بريقاً باهر اللمعان ينبيء بأن الرماح لم تُرْفَعْ لغرض سلب الأرواح وإنما لإعلاء راية العرس فهذا النهار يتولى مهمة إيصال المهر لأهل العروس وهاهم أولاءِ مئة من الخيالة الذين ترافقهم رماحهم حتى بالأفراح يسوقون أمامهم النوق الخمسين التي تقدمت الموكب شاهقة الأعناق وباسقة الأنوف وقد زينت أعناقها بالورد ولا أحس هذا الزهر الذي انتزع من أوطانه ليكون زينة أعناق نياق مهر العروس إلا فرحاً بفنائه فاليوم كل شيء أمر مطاع كرامة لعيني العروس .

(*) الجوسق : جمعه جواسق ويعني القصر .

(**) السرادق : واحد (السرادقات) التي تمد فوق صحن الدار .

وراحت حناجر الخيالة تصدح بنغمات الحداء ويتنفسون ملء صدورهم دخان البخور الذي ينفثه مضرم فخاري كان محمولاً بين يدي امرأة كانت تمشي خلفهم تقدمت تقود النعاج المئة. وهكذا يتطاول الموكب فتلي الشياة كل من العبد والعبدة وقد اعتلت العبدة فرساً كحيلة نالت قسطاً وافراً من الزينة ويقود الفرس العبد الذي هو الآخر من مهر العروس.

وفي نهاية الموكب مشت النساء اللواتي ارتدين ثيابهن الجديدة يصحبهن الأولاد الصغار ولم يبخلن بزغاريدهن التي لم تنقطع منذ بدأ مسير الموكب ويتبعهن جمل كان نصيبه أن يحمل الهدايا لأهل العروس من الحساويات المقصبة والشملات المذهبة والزبن الشامية والجزمات الصفراء الحلبية.. كان موكباً عظيماً بحيث يضل به البصر وكان جميلاً حيث يحار المرء أين يمتع ناظره.

ولم يطل المسير كثيراً حتى وصل الموكب عشيرة أهل العروس وللحال خرج للقائهم كل خيالة العشيرة ودوّى وقع حوافر الخيل الهائجة حرارة وحماسة وابتدأ طراد الخيل وانبرى الفرسان يتسابقون ويتعاركون على نحو وهمي لا تميزه من العراك الحقيقي إلا الأعين العارفة في حين حوّم الغبار عالياً كما أجواء المعارك.

أما نساء القبيلة فقد خرجن بالبخور تسبقهن الزغاريد التي جادت بها حلوقهن بأحلى ما يمكن للتهاليل أن تكون.

وكل ذلك كان أمام بيت أهل العروس.. وبقي الفرسان على ما هم عليه من حرب وهمية حتى آن لهممهم أن تفك عراها وأن تعيا

حوافر خيولهم فترجلوا عنها وجلسوا ينتظرون القهوة التي أقبلت يحملها العبيد وتضخمت الأنفاس بشذى حب الهال . ولأجل الغداء نُحِرَتْ جمالٌ وخرافٌ كثيرة كي تكفي تلك الأفواه الغفيرة .

وتناول الجميع غداءهم في حين واظب العبيد على تقديم القهوة دون انقطاع ثم ودعوا أهل العروس وعادوا لعشيرتهم يهيئون أنفسهم من جديد من أجل زفة العروس التي ستكون بعد ثلاثة أيام .

جاء يوم الزفّة .. يوم ارتسمت عليه كل دلائل البشر وكل شيء يعلن عن سيماء هذا النهار ، يوم ستحفظه ذاكرة الصحراء أمداً طويلاً . يا لسرور هذا الصباح ويا لابتهاج نسائمه من ذا الذي يتثاءب ؟ ألم تذر الرياح بمسامعك الزغاريد التي كانت منذ الأزل ترجمان الأفراح ؟ وهاهي ذي الطيور جادت بفيوض غنائها والشمس طأطأت أبصارها ونضت الكسل عن ألحاظها وبمتعة راحت ترمق المكان الذي تجري فيه استعدادات زفة العروس .

وحتى الريح تهذبت وأوقفت عبثها وهبت تسوق أمامها الروائح العطرة التي تنشرها الزهور عن طيب خاطر ففرح العرس ليس من هينات الأمور والحياة لا تلذ إلا بأفراحها .

ها هي طلائع الخيالة من عشيرة الراجح ووجهائهم ونسائهم يتوجهون إلى عشيرة البراجس لجلب العروس وما إن وصلوا حتى هرع خيالة أهل العروس(*) لقتالهم وساد الصخب في المكان وبدأ القتال بعد

(*) العريس لا يذهب إلى زفة العروس لأن من العادة أن يحدث قتال بين أهل العريس وأهل العروس وقد يقدم أحد أقرباء العروس على قتل العريس كي تبقى العروس له .

أن ترجل الوجهاء والكبار من كلا العشيرتين وجلسوا يشهدون فيضان فنون القتال ويرقبون خيالة الطرفين الذين راحوا يقاتلون بعضهم بعضاً وعلت الغبار متون حوافر الخيل وكدرت صفو الأنفاس وهيجوا ضوضاء تكاد تصم الآذان ودأبت الخيل تتواثب والسيوف تتنازع .

وما برحوا يتقاتلون حتى اختطت أسنة الرماح جروحاً لفظت دماءً وأوشكت الهمم أن تتداعى وأخيراً أذعنت عزائم أهل العروس وتخونهم الحظ وكانت الغلبة لجماعة العريس فهجموا على البيت وأخذوا العروس وسلموها لنسائهم وهذه الآونة التي يغير فيها الفرسان على بيت العروس تكون أملأ آونات الزفة جلبة وربما خطورة .

ثم اجتمع كل الرجال أمام البيت وانبرت القهوة تدور عليهم وتناقلت الأيدي فناجينها .

ثم ابتدأت رحلة العودة بصحبة ظعائن العروس والجمال التي حملت بجهازها واستقرت العروس في هودج يسبي الأبصار هودج ملبس بالمخمل الأحمر الساطع تتخلله مكعبات باللون الأحمر القاتم والأبيض المصفر ومزدانة حوافه بالأشرطة الذهبية المخرمة وزوق بحبات الودع البيضاء اللامعة بسخاء بالغ . أما ريش النعام بلونيه الأسود والأبيض فقد توزع على شكل تيجان تزين أعلى الهودج وتبرز أيضاً مرايا صغيرة مرصوفة رصفاً رائعاً .

ويلي الهودج جملٌ ينوء تحت عبء حمل البيت وأعمدته وجمل ثالث تعتليه حاجيات البيت من فوانيس وسراجات وطنافس ولبد وبسط وأوانٍ نحاسية ويكتمل موكب الزفّة بظعائن قريبات العروس من النسوة

المقربات إليها ويقارب عددهن العشرين امرأة ومشى وراءهن أكثر من عشرين خيالاً من أقارب العروس في حين أهل العريس تقدموا المواكب تتدفق أفواههم بالغناء والحداء والتهاليل من دون تحفظ في حين استمر لعب الخيل إلى أن بلغوا بيت العريس حيث انهالوا عليها بالتهاليل ومن حولها تحلقت الفتيات اللواتي يدفعهن فضول مبطن بالحسد إلى رؤية العروس ومن ثم إطلاق التعليقات بألسنة تحركها الغيرة فتقول إحداهن :

ــ إذن هذه هي فاطم الذائعة الصيت .

وأخرى تقول :

ــ كنت أحسبها أجمل من ذلك بكثير .

وفي هذه الأثناء حل الليل وفرش سجادته السوداء ونمنمها بنجومه وأفسح مكاناً لقمره الذي وشح المحتفلين بنوره وشرع يبث سحره وجاء دور الغجر الذين أرسل بطلبهم خصيصاً لأجل هذه المناسبة وعلى دق طبولهم اقتديت الأجساد التائقة للرقص وتمايلت الحسان وقد تولاهن الجذل والشبان الذين استعبد فتون الجميلات أنظارهم وغزا مسكهن أنفاسهم انخرطوا يدبكون ويهزون أكتافهم بحماسة يسخر من رقة هز أكتاف الفتيات ثم اجتمع كل الحاضرين للتمتع برؤية رقصة الحاشي(*) رقصتهم المفضلة .

(*) الحاشي : هي الرقصة المفضلة لدى البدو في الأعراس وهي رقصة تشبه المسرحية إلى حد بعيد حيث يصطف الرجال على شكل نصف دائرة وبالعادة يقارب عددهم الثلاثين رجلاً وبمنتصف الدائرة تجلس فتاة القرفصاء وقد تغطت تماماً بالعباءة بحيث لا يعرف الحاضرون من هي وتبدأ رقصة الحاشي بالغناء حداء وحداء الحاشي يشبه الحداء الذي يرافق مسيرة قوافل الجمال في حين تتمايل رؤوسهم وأكتافهم على نحو

كانت ليلة نمقتها أغاريد الربابة وزوقتها أصداء الدفوف ولشدو الفتيات أنصتت أسماع السماء ولأهازيج الصنجات طربت نجومها .

ومازالوا على رقصهم ودبكهم إلى أن غلبهم النعاس وأنهوا ما كانوا فيه من رقص وغناء ولجأ كل إلى فراشه على أن يكملوا فرحهم غداً يوم العرس .

في اليوم التالي حين حل المساء وفض العرس بنيت البرزة للأمير وعروسه .

دلف الأمير من باب البرزة(*) ووقف يحدق في عينيها البنيتين اللتين فاضتا بالبهجة المسحورة أليس في هذه اللحظة يتوقّف الزمن؟، هل عينان وحدهما هما اللتان تتكلمان؟.. في تلك اللحظات التي تمتزج فيها الحقيقة بالخيال ماذا يمكن للأمير أن يقرأ في تلك العينين

يشبه حركة سير الإبل ويستهل الحداء أحدهم بالآتي :

« يا هلا بك يا هلا بك مر قول وفعل يا ولد إذا طلبت من الخيل أعطيك عدد نجوم الليل » .

أي أنه يريد شراء الفتاة الجالسة بالمنتصف فيهب أحد الشبان للدفاع عنها بعد أن يرفض طلب المغني الذي يهب من جهته شاب آخر يحمل خنجراً أو سيفاً يريد أن يأخذ الفتاة عنوة وإذا ما أفلح بالتعليم عليها بأنه جرحها بحركة وهمية تدل على أن الفتاة أصبحت ملكه فتهب الفتاة وهي ملثمة وبسيف أو خنجر تحاول الدفاع عن نفسها بحركات شبه مسرحية محاولة بذلك التعليم على عباءة ذلك الشاب وهكذا .. ويصاحب كل هذا الحداء والتشجيع من الحاضرين .

(*) البرزة : هي بيت صغير يبنى على عمود واحد ينصبه النساء لأجل خلوة العريس مع عروسه في ليلة الدخلة .

الضاحكتين كزهرتَيْ زنبق تتعانقان.. المتماوجتين كشجرَتَيْ صفصفاف على ضفاف العاصي..؟!

الآن.. حان الوقت لتبدو أسرارها، ومن خلف تلك الأسرار رغبةٌ لم يعد بالإمكان حبسها أو تأجيلها...

كان الأمير، وهو يقرأ هذه المقاطع السحرية، يُعدُّ نفسه للمشهد الأجمل، حيث يدفن رأسه بين قُبّتَيْ نهدين طالما ارتشف خمرهما، وهو يريد اليوم أن يأتي على ما تبقّى في تلك الأقداح ليشرب حتى الثمالة.. يريد أن يحضنها، وبلا شفقة، وأن تطوّقه ذراعاها ليلتقي الجسدان في موعد طالما أجلّاه مُرْغَمَيْن... واليوم حقَّ ذلك الموعد محفوفاً بمظاهر الفرح التي تركها تتماوج حولهما.. زاد وهج خضار عينيه وبغوريهما حلق وميض لماع كانت فاطم قد ارتدت ثوباً أرجوانياً داكناً وفوقه عباءة سوداء أطرافها مطرزة بدروب ذهبية لكن شعرها ما فوق الجبين إلى قرب قمة الرأس لم يعد بارزاً كما كان في السابق فقد سترته فهي الآن في عداد النساء المتزوجات لكن الخزام الذهبي الواسع في أنفها والمزين بفص من الفيروز لم يتغير وقلادة الخرز الأسود التي أهداها لفاطم منذ عام مضى فقد أحاطت جيدها على نحو رائع.

بعد صمت نطق قائلاً:

ـ أي سعادتي كيف ومن أي درب بلغت حياتي لابد أن هذه الحياة قد رسمت للبشر أقداراً وحشية أطلقت زفرة قصيرة وتحركت شفتاها قائلة:

ـ لم أخمن يوماً أن تعود الحياة لقلبي الميت.

ـــ أن نعشق هو أن نتعلم الموت .
ـــ بل هو أقسى من الموت .
ـــ هل جال في خاطرك بأنك سترينني يوماً ؟
ـــ كان عليَّ أن لا أحرم قلبي من التمتع بهذا الحلم الجميل .
ـــ ربما علينا أن نعمل على أن لا نخيب آمال أفئدتنا وأن نتيح للحب فرصة ألا يموت .
ـــ كان كلما ذكر اسمك يلتهب جوفي حمماً من نار .
ـــ وأنتِ ذكراك أسكنتني السعير .. أي فاطم ليس هناك أسعد من قلب تسارع إليه السعادة بعد أن باتت ميؤوساً منها .
ـــ السعادة موجودة ، موجودة هنالك دائماً موجودة ما ظل البشر في قيد الوجود ولا سبيل لأعدائها وخصومها من آلام ومواجع إلى إنكارها .
ـــ أي هناءتي التي بحشاي تشبين راقصة ترفقي بروحي وقدحاً قدحاً ناوليني فرحي :

صمت سمهر قليلاً ثم اقترب من فاطم وقال :
ـــ مرحباً بفاطم .
وبهمس ردت .
ـــ مرحباً بسمهر .

❊❊

الأفعى تفحُّ!
لغز محيِّرٌ ؟!
الأقدار الهاجعة تنتفض من مرقدها حين يدركها الأوان
وإن هنيهات السعادة هذه هي درر الأيام .
فما عساه أن يكون المصير ؟
هاهو ذا الزمان إنه يقطب حاجبيه ويرفض الكلام .

*

الشمس لا تفتر لحاظها تدفق سيولها اللاهبة المشعة لتفيض سراباً يغشى حدود مدارك الأبصار ، وراحت الغزلان تتفيأ الظلال بعد أن اتكأ الربيع نائماً وارتجت بواباته ، وحل الصيف ، وعبثاً يستجدي النسيم العليل له مكاناً في غير أوقات المساء ، وأسراب القطا تكد في بحثها عن مواردها .

بعد مضي شهر على زواجهما جلس سمهر محدقاً بفاطم التي كانت تجلس قبالته ، تكلمت تسأله :

— بم تحدق ؟

— في عينيك ففيهما أرى نعيم الفردوس.. دثريني بوهج عينيك الكهرماني المتلامع .. ويا بؤسي يوم خلت أني لن أراهما وطال احتباس القدر لسعادتي ..

قاطعته قائلة :

— يا روعة ما هيئه الرب لنا بعد طول البعد فالتمتع برؤيتك كان منتهى آمالي وأبهج ما يمكن أن أتخيل .

ـــ رباه كم أخشى على سعادتنا من الأيام القادمة وكم يثير خوفي أن يكون صحيحاً ما زعمه البشر بأن السعادة لا تدوم طويلاً .

ـــ ليس علينا إلا أن نصونها والباقي هو رهن للزمان .

ـــ وشد ما أخشى الزمان وما ينويه من ختام .

ـــ هدئي من روعك يا حبي ، فنحن لا نملك إلا أن نتمنى دوام هناءتنا ، وأن لا تكف السعادة عن تقبيل أيامنا ، وأن يهبنا الزمان أمانه ، وأن لا يبخل علينا باطمئنانه ولا يشتهي لنا القدر إلا ما هو خير ، وأسأل الله أن يبارك كل ما تمنيته لتوي ويغدق علينا نعيمه .

قطع عليهما رديني الذي جاء يعلم عمه أنهم جاهزون للذهاب إلى نبع الحمام .. اعتلى الأمير ظهر كهرمان وخاطب أهل بيته قائلاً :

ـــ آن لنا أن ندلل أجسادنا قليلاً وسنقصد نبع الحمام علّه يخفف من أسقام الحر ، ونكفكف عرق الأبدان قليلاً ، وبمشيئة الله سنعود قبل المغيب قال هذا وانطلق هو وصحبه شمالاً باتجاه الحمام .

كان الحمام مشيداً من الحجارة السوداء تحيط به منبسطات تعج بالنباتات التي تتفرد بها البادية من شيح وقيصوم وروثه وصر(*) .

بينما أشجار الطرفاء العتيقة تلف نبع الحمام من كل الجهات إلا مدخله حيث فسحة تخلو تماماً من الأشجار وحدها شجرة تين معمرة اتخذت لها مكاناً وسط الفسحة وحين بلغ الأمير وصحبه المكان تفاجؤوا بوجود قافلة صغيرة قد حطت رواحلها قرب شجرة التين .

(*) الصر : هو شجيرات أوراقها صغيرة كثيرة الشوك وصيفاً تغدو حطباً للنار .

كانت القافلة مكونة من ستة خيول وأربعة بغال وثلاثة جمال تكومت قربها أمتعة كثيرة وهناك رجلان طاب لهما الاستلقاء بظل أشجار الطرفاء وحمار أيضاً فر من الحر واحتمى بفيء الشجر وقرب شجرة التين اضطرمت النار بغصينات الطرفاء وحولها رجلان واضح أنهما مشغولان بإعداد الطعام ويتراكض حولهما كلبا صيد نحيلان .

وبدا بين الأشجار أربعة رجال انشغلوا بارتداء ثيابهم وثلاثة آخرون لابد أن مهمتهم كانت الحراسة فقد كانوا متسلحين بالبنادق والسيوف ولدى رؤيتهم لجماعة الأمير هبوا من أماكنهم متأهبين للقتال فترجل الأمير عن فرسه وألقى عليهم السلام وفعل مثله كل من مناور ورديني فعاد الرجال المسلحون إلى أماكنهم ووضعوا أسلحتهم جانباً بعد أن اطمأنوا إلى نية هؤلاء القادمين ثم تقدم منهم الأمير قائلاً :

ــ إننا لا نقصد إلا الاستحمام والراحة ومثلكم سنستحم والخدم يحضرون غداءنا فلا تخشوا منا .

رد عليه من بعيد أحد الرجال الذين كانوا يرتدون ثيابهم وبدا واضحاً أنه هو صاحب الشأن في هذه القافلة الصغيرة قال الرجل :

ــ لكم منا كل الأمان والاطمئنان فنحن ضيوف على الصحراء لا أكثر .

وبصوت عالٍ خاطبه سمهر :

ــ أهلاً بكم ومرحباً أعدكم أن لا تنالوا من جماعتي إلا الرفقة الطيبة .

أنهى الأمير كلامه ودخل الحمام بعد أن خلع ثيابه وناولها لحبشان وتبعه مناور على أن يبقى رديني وبقية الرجال في الخارج



للحراسة ثم يدخلون الحمام بعد أن ينتهي الأمير من حمامه في حين انبرى حبشان وخادم آخر بإشعال النار وتهيئة الغداء.

كان الحمام من الداخل فناء فسيحاً تتوسطه بركة واسعة ومن أحد الجدران وباستحياء تتسلل إليها المياه من فوهة ضيقة وفوهة أخرى تنبجس منها المياه بغزارة كأنها كانت حبيسة في مكان ما ثم راحت تتحرر فتدفق على عجل وتتناثر وتتطاير محدثة صخباً متواصلاً. أما السقف فهو قبة واسعة فيها فتحات صغيرة تمرر الضوء والهواء.

كان المكان هادئاً لا ينازع رقرقة الماء إلا حفيف أجنحة الحمائم التي تطير من فتحة إلى فتحة حيث ابتنت أعشاشها. هدوء يوحي بعفة المكان بحيث يقل المرء إلى عالم من الهناءة تبعث على إغفاءة الروح.

وبينما سمهر على هذه الحال من الراحة البدنية والروحية وبلحظة مباغتة مسَّه الألم وقسراً طغى على كيانه فقد دخل إلى الحمام أحد خدم القافلة من أجل أخذ الماء وكان يترنم بأغنية تقول كلماتها:

نهوضاً يا جنيات الصحاري
ليت إحداكن
عن بلقيس تجوس بلاد الرمال
وتسأل ملوك الجان
أو هدهد النبي سليمان
فبلقيس اسم هتف به الفردوس
وبين الأفلاك سمعته مهموس

ردت إحداهن :

بلقيس كتب لها العرش وانتقاها القدوس
ترفل بنسيج كأرياش الطاووس
ببلاد شواطئها تأتلق كالفيروز
فيها يلهو الجمال ويرقص كالمسحور
نسيمها سجسج(*) وثراها عسجد(**)
وبلقيس أبداً تظل بلب الأحاجي تميس
فهي سر اعتصم ثغر الدهر العتيق

يا لوخز هذا الاسم ويا لوجع الذكرى حين يلتهب بلقيس اسم انتفضت له ذكرى قديمة لشخص كان يعز عليه كثيراً كيف له أن ينسى ميتتها المأساوية صاح سمهر بينه وبين نفسه :

ــ رباه من أية لجة انبجس اسمها فأنا لم أحن يوماً إلى أحزان الماضي إن أغنية الخادم قد أزاحت التراب عن جثمان ذكرى مدفونة .

عاد سمهر يغط رأسه بالماء عله يتنصل من شباك شرك الحزن الذي أوقعه به الخادم الذي كان يشدو بأغنية عن بلقيس التي لا يعرف عنها سمهر شيئاً .. وسرعان ما أنهى الأمير حمامه وحين هم بالخروج صادف ذلك الخادم ثانية وقد عاد لجلب الماء فاستوقفه سمهر وسأله :

ــ من قصدت ببلقيس التي كنت تغني عنها ؟

(*) سجسج : الهواء الذي ليس حاراً وليس بارداً ويقال الجنة هواها سجسج .

(**) العسجد : الذهب .

فأجابه الخادم الذي كان غريب اللهجة :

ـــ كان يا ما كان حتى كان الله في كل مكان وحتى كان الحبق والسوسان يحكي أن بلقيس ملكة حكمت بلداً في اليمن اسمها سبأ والهدد هو من حمل النبأ وفي قصر سيده أعلن الخبر على الملأ. وسيده هو النبي سليمان عليه السلام ثم حمل الهدهد رسالة من النبي إلى الملكة واستقدمها إلى قصره وتزوجها. وهذه الحكاية حكاية سماوية روتها الآيات الإلهية الكريمة.

ـــ إذاً بلقيس هو اسم ملكة.

قال سمهر هذا وترك الخادم لعمله وبعد أن ارتدى ثيابه خرج من الحمام ووقف يجول ببصره بين أفراد القافلة وأمتعتها يدفعه الفضول إلى أن وقع بصره على صقر حط على دكة خشبية ملبسة بالجلد الأسود وثبت على رأس الصقر قناع استوقف نظر سمهر على نحو غريب فتلك العقيقة الحمراء التي تتوسطه والفيروزتان اللتان استقرتا على الجانبين.. قطع عليه استغراقه بالنظر إلى القناع رجل تقدم منه وألقى التحية كان رجلاً طويل القامة ورغم الحطة التي غطى بها رأسه فقد بدا عليه واضحاً أنه ذو سحنة شقراء.

ألقى سمهر عينيه على ملامح وجهه التي لاح بها شبه لشخص ما وسرعان ما اتقدت ذاكرته بصور شتى بحثاً عن الذي لابد رآه يوماً يشبه هذا الرجل الأشقر لكن عبثاً حاول تذكره.. بدأ الرجل بالكلام بعد أن لاحظ اهتمام سمهر بقناع الصقر وقال :

ـــ هل هي العقيقة التي تشد بصرك أم الفيروزات ؟

ـــ العقيق بكل ألوانه جميل وأحلاها الأحمر الذي يشبه لون أفق الصحراء ينيره ضوء الغسق إنه حجر تتسعر به نار الغسق أبداً . أما الفيروز فله وميض يجيش بألق وسطوع غامر وليس هناك أحلى من زرقته السماوية كما أنه لون الاستبشار والحبور عند البدو .

ـــ وألا يعتقدون بأن الفيروز الأزرق يصد شر العين الحاسدة .

ـــ بلى هم يؤمنون بهذا بقي الرجل صامتاً يحدق بوجه سمهر بنظرات تشتمل على غموض كبير ثم فطن لنفسه وتكلم قائلاً :

ـــ قيظ الصحراء ليس بذاك الذي يرحم .

ـــ في هذه الأشهر من السنة لا تستطيع أن تذم الصحراء على حرها .. هل رحلتكم إلى حلب ؟

ـــ لا إلى دمشق وقد قصدنا النبع لعله ينجينا قليلاً من العرق الذي أضحت له أجسادنا نبعاً لا ينضب .. هل لي أن أعرف من هو الذي أتكلم معه ؟

ـــ عديدة هي الأسباب التي تدعوني إلى عدم الإفصاح عن اسمي .

ـــ هلا وثقت بي ؟

ـــ وهلا أعفيتني من ذلك ؟

ـــ فيم الكتمان ؟ ثم أيضمر أمير اسمه ؟

ـــ أخشى أنك وقعت في وهم جرك إليه شبه بيني وبين شخص آخر .

ـــ أخشى أن لا يكون هناك أحد يشبهك .

ـــ وماذا تبتغي من وراء معرفة شخصي ؟

ـــ إني عازم على أن تمنحني ثقتك وأرتقب كثيراً أن نكون أصدقاء والصداقة تقتضي أن تطلعني على اسمك .

ـــ يلوح لي أنك تعرفني .

ـــ أعرف أنك تتهنس عبر الصحارى من دون أن تتهيب أحداً لكني أرى فيك من الحذر قدراً كبيراً.. أتراك أزمعت أمرك على أن لا تفصح لي عن اسمك ؟

ـــ وما نفع ذلك إذا كنت تعرفني ؟

ـــ لا لا فلم تكن تلميحاتي إلا محاولة رمت من ورائها دفعك إلى التعريف عن نفسك لكن يبدو أني أخفقت بمسعاي .

ـــ إذاً عرفني أنت بنفسك .

ـــ يدعونني خالداً .

ـــ هل أنت من أسياد دمشق ؟

ـــ ربما .

ـــ وما الذي دفعك إلى هذا المكان ؟

ـــ رحلة بقصد المتعة .

ـــ وهل نلتم ما نشدتم من متعة ؟

ـــ ومن يدري ربما ؟

ـــ أية متعة يمكن أن تقدمها لك الصحراء في هذا القيظ ؟ وأظنك يا عزيزي تراوغ وليتك تسلك الطريق السوي بإجاباتك .

استقبل خالد فظاظة سمهر بمرح مريب فقد ضحك قائلاً :

ـــ قد كنت في دير الزور بقصد شراء الخيول الأصيلة وخرجت إلى العشائر البدوية أيضاً من أجل الخيول وها أنذا مع جماعتي نخيم هذه الليلة عند النبع الذي علمنا بوجوده قريباً من خط سيرنا إلى حماة التي سأقصدها غداً وبعد أيام أغادرها إلى دمشق .

ـــ إني أرى بوجهك سمات النبلاء وهذا يستوجب علي حق إكرامك .
ـــ تكرمني إذا منحتني شرف قبول دعوتي لك ومشاركتي غدائي فإنك تبدو لي أنك زين عشيرتك .
ـــ لكن أنتم ضيوف البدو ومن حقنا نحن أن نكرمكم .
ـــ نحن وأنتم ضيوف على هذا النبع ولا فرق بيننا إلا أنني أردت أن تقاسمني متعة الأكل بين أشجار الطرفاء وأن تتذوق الطعام وقد أعد على الطريقة الدمشقية وأظن أن عبدون قد انتهى من تحضيره .
ـــ إن إكرام خاطرك وقبول ضيافتك أمر يجلب السرور وأصبح عندي رغبة كبيرة من أجل التعرف إليك أكثر .
ـــ وإذاً تفضل فقد طال وقوفنا وحان أوان الغداء .

جلس الجميع على سجادة قديمة يتناولون الغداء تمتع الأمير بصحبة خالد وجماعته الذين شاع بينهم المرح .

قص خالد على سمهر قصصاً كثيرة تتعلق بما صادفه من بشر وحيوانات منذ مغادرته للدير وأكثر ما كان يدور حوله الحديث هو الخيول وسلالاتها .

وعصراً ودع الأمير وصحبه خالداً وقافلته وعاد إلى المنازل منتشي الروح وصافي الخاطر بعد أن أمضى نهاراً حافلاً بالمتعة وبينما هو على هذه الحال وقد اقترب من البيوت بلغ مسامعه صدى نحيب وصياح آتياً من بيته بالذات مما أوقعه في هاوية سحيقة من الشكوك وهبط الخوف إلى نفسه ورجفت ظنونه بأن أحداً من أهل بيته قد أصابه مكروه فأسرع وهو مترجرج النفس وما إن اقترب من البيت حتى

اندلعت ولولات متفجعة جعلته يترجل عن فرسه ويركض إلى المحرم حيث التمت النسوة وكانت شميم أول من قابلته بعينين فاضتا بكل دموعهما ، إلا أن شميم لم تنطق بحرف بل تنحت عن طريق سمهر وأدارت وجهها إلى جهة أخرى.. لن تمر لحظة أصعب من تلك اللحظة التي رأى فيها سمهر حبيبته فاطم التي حارب لأجلها كثيراً وهي ممددة على الأرض بوجه شاحب مزرق وأيدٍ مرتخية تماماً تدل على أنها خالية من الروح .

هجم سمهر على وجه فاطم يقبله ويصرخ :

ـ فاطم مالي أرى جفونك موصدة ؟

أجابته أمه من بين الدموع :

ـ قد عضتها أفعى ومن فورها أسلمت الروح .

عاد سمهر يحدث فاطم كأنه لا يدرك ما هو الموت :

ـ أي حبيبتي فاطم إلى متى ترقدين ؟

كيف للأيام أن تمر من دون أن تهفو شفتاي لملاقاة شفتيك وأن لا تهرع ذراعي إلى ضمك ولا تمتد أصابعي إلى جدائلك ولا يصافح سمعي نبرات صوتك فاطم يا لهول وجعي .

فاطم لماذا قُدر لك أن ينقطع عنك دفق الزمان؟ وتنحبس عنك أنفاس الحياة كيف لي أن أنظر إلى عينيك الحلوتين مطبقتين ؟ يا ويل قلبي كيف سيحجبك القبر عني ؟

دفنت فاطم عصر ذلك اليوم قرب جبل عبيسان وانتصب حجر مرمري أبيض متطاول الشكل فوق قبرها جلبه رديني من خرائب داثرة .

١١

هذه المرة هز القدر سوطه بعنف
والويل يكمن بما يكنه الزمان
وبما يهجع تحت الأيام الصامتة
فهاكم ما تضمره .

❀

تقدمت العشيرة باتجاه الجنوب حيث سهول الأندرين(*) وحر الصيف كان على أشده ، والمكان الذي نزلت به البيوت كان تكثر فيه صهاريج طبيعية مازالت تخبىء ماءها وانتشرت في السهل أحجار وأعمدة بعثرتها أيدي الزمان وآبار مردومة وأطلال دارسة .

كان الأمير مضطجعاً بربعته بعدما أفاق على جلبة حرب يصطنعها الفتيان فيما بينهم وهم يعتلون ظهور أمهارهم ويمرنونها على العدو ولأول مرة بعد موت فاطم نسي ألمه وعاد بذاكرته إلى أيام صباه المبكر حين كان صاحب ثغر مضحاك لا يشغله غير أمور الخيول والصيد والصقور والكلاب ليتني لم أكبر ليتني بقيت طفلاً لا يفقه ما هو الموت هذا ما كان سمهر يقوله لنفسه حين قطعت أمه عليه أفكاره بقولها :

ــ ليت ابني يطعمني هذا اليوم من صيده .

أدرك سمهر أن ما تريده أمه من وراء طلبها هذا هو إشغاله عن ذكرى فاطم .

(*) الأندرين : مدينة أثرية دائرة تقع شمالي شرق حماة ٨٠ كم .

أجاب سمهر :

ــ ليت هذا ياأماه لكن الحر يحول دون هذا ومن أراد الصيد عليه أن يغادر فجراً وليس الآن وقد علت الشمس .

جلست قبالته وعادت تقول :

ــ كم أحب أن تفك وثاق لسانك وتعود إلى كلماتك اللاذعة التي اشتقت إليها .

بقي سمهر صامتاً وصب لنفسه القهوة عدة مرات ثم راح يتأمل الفنجان الخزفي كأنه يراه لأول مرة ومرة أخرى تحدثت الأم :

ــ يا ولدي قد مر شهر على موتها وسرعان ما ستواري الأيام عنك ذكراها .. رفع بصره إلى أمه وهالات من الأسى تحوم في أغوار عينيه وقال :

ــ كيف لي أن أنسى حين كان التراب يردم فوق جسد حبيبتي في حين بقيت واقفاً ؟

كيف لي أن أسعد بعد الآن ؟ والقلب سيد هذا الجسد قد هلك بعد أن أصبحت مليكته مع من غادر هذه الحياة قد بدأت أعتقد اعتقاداً راسخاً بتفاهة كل ما يحيط بنا بل وسخافة الحياة نفسها ولا أرى أمامي إلا هوة قاتمة .

ــ يا ولدي هذا الاعتقاد يسيطر عليك لأنك فقدت مخلوقاً عزيزاً عليك إنه قدرها .

صاح سمهر قائلاً :

ــ أتعقب السعادة في حين القدر الباغي يقتفي أثري وآه لي كم قررت

أني لن أرتجف أمامه ولن أهاب المصير ولن أرتعش من الموت لكن قراري مسكوب على الثرى .

ــ ليس عليك إلا أن تتفاءل بالزمان الآتي .

ــ لا أراه إلا أسود الإهاب .

وما إن أنهى الأمير جملته الأخيرة حتى دخلت عذوب ووقفت قرب أخيها وهي تحمل مضرم بخور برونزياً على هيئة إوزة ملأ المكان بعبق البخور المحترق وقالت بصوت عالٍ ومشاكس :

ــ سمعت أن أرانب الأندرين تتحدى الأمير سمهر وصقوره بأن يستطيع أن يصيد أرنباً واحداً منها رد عليها سمهر مبتسماً :

ــ وماذا عن الغزلان ألا تتحداني هي الأخرى ؟

ــ لا هي لا تتحداك .

ــ وما حجتها في ذلك ؟

ــ تقول بأنه لا يليق بك أن تصيد غزلاناً .

ــ وحق الله إن طول لسانك ليفوق طول الطريق من هنا إلى دمشق .

ــ من هنا إلى دمشق طريق قصير قياساً إلى الطريق إلى اليمن فشميم دائماً تقيس طول لساني بالطريق من هنا إلى اليمن .

ــ لاريب في أنها محقة أين هي شميم ؟ لِمَ لا أراها ؟

ــ أوت إلى خدرها بسبب ألم برأسها .

ــ لابد أنها تذرعت بألم رأسها كي تفر من رفقتك الثقيلة الظل مسكينة هي شميم لابد أنك تطوقينها بثرثرتك من الصباح إلى المساء .

قالت الأم بلهجة جدية :

ـــ يا ولدي ألا ترى أن شاهباز قد تاق للصيد ؟

ـــ حسناً سأطلب الصيد عصر هذا اليوم اتقاءً لحر الظهيرة .

عصراً انطلق الأمير ومعه أكثر من عشرة فرسان وعدد من البازيارية تسبقهم الكلاب يقصدون خرائب الأندرين .

كان الجميع يتمتعون بنشاط وهمة تنبيء أن عصر هذا اليوم سيشهد مصرع الكثير من الطرائد .

وسرعان ما انبرت الطبول تدق بحماسة وطفقت الأرانب تفر من الأجمات الصغيرة تلاحقها الكلاب والصقور معاً .

أما الأمير فقد بقيت همته هامدة فترك الصيد لشأنه ورأى أن ينزه روحه بأن يتوغل قليلاً بين ركام مدينة الأندرين وأطلالها لعله بذلك يبعد الخمول عنه وأن لا تتبدد محاولة أمه وأخته في الهباء فهما أرادتا له الخروج وخوض غمار الصيد كي يهجر ما يحيط نفسه به من ألم وأسى لكن كيف له أن ينسى سعادته التي اخترمتها أنياب أفعى وهناءته التي أشاحت بوجهها بعيداً عن حياته بهذه الكلمات المتحسرة كان سمهر يحدث نفسه عندما أثار انتباهه رؤية مكان مليء بأعمدة مضطجعة وحجارة ضخمة مزدانة بصفوف منقوشة على هيئة أوراق نباتية معترشة تتعلق فيها ثمار العنب .

توغل سمهر بين الخرائب أكثر محدثاً نفسه .. ما أروع السيطرة على الصخر !. لكن كيف استحال كل شيء إلى ركام وهذه الأحجار الضخمة رغم جسامتها رمتها السنون على التراب وبينما الأمير على هذه

[illegible] سمعه صوت حداء قادم من بعيد، نظر حوله يريد أن يعرف مصدر الصوت وإذ به مناور جاء يخب على ظهر حصانه الأسحم.

ومن دون أن يحيي صديقه الأمير نظر مناور إلى الشمس التي كانت ماتزال ترسل أشعة حارة وقال بصوت عالٍ.

ــ أيتها الشمس من وهج ألحاظك إهدئي ولخاطري أنصتي أريد أن أصطحب صديقي إلى قصر هو تذكار من سادة عتيق الزمان.

سأله سمهر :

ــ أي قصر تعني ؟

ــ قصر ابن وردان(*) إنه لا يبعد من هنا كثيراً نستطيع أن نذهب إليه ونعود قبل المغرب ما رأيك ؟

ومن دون تأخر أجاب سمهر :

ــ هيا بنا.

وانطلقوا تعدو جيادهم فوق أرض منبسطة يروق للخيول كثيراً أن تعدو عليها.

وهناك كالحلم كالطيف الذي حين يراه المرء لا يصدق عينيه ظهر بناءان ضخمان تعلو أحدهما قنطرة عظيمة إنه قصر ابن وردان الذي استقر وسط الصحراء كأحجية للرمال وكان القصر مبنياً من الأحجار السوداء والآجر الأصفر اللون مدعمة بأحجار جيرية بيضاء فاضفى عليه تناوب اللونين الأسود والأصفر روعة غامضة.

(*) قصر ابن وردان : هو من أجمل قصور البادية الشامية يقع شرقي حماة ٦٥ كم.

ولجه الأمير وصديقة وتجولا بين أعمدة رخامية اعتمرت تيجاناً زخرفية وأروقة طويلة يتألف كل منها من صفين من الغرف يتصل بعضها ببعض وتشرف عليها القناطر من الداخل .

كان المكان في غاية الهدوء فلا يسمع إلا نداءات الهدهد المبهمة وكأنها تهفو إلى مكان ما .

قال الأمير وقد استولى عليه الذهول :

ـــ إن فيه طيفاً من الملكوت .

رد مناور قائلاً :

ـــ وكل شيء فيه يثير الرهبوت .

ـــ وحين خرجا منه واعتلى كل منهما صهوة جواده قال الأمير وهو ينظر إلى القصر نظرة أخيرة :

ـــ ليت هناك من يخبرنا عن أسرارك الرواقد بين مطاوي الأيام الماضية ولابد أنك سليل لأمجاد الصحاري الغابرة قال هذا وانطلقا عائدين إلى خرائب الأندرين حيث تركا البازيارية غارقين بجلبة الطبول ونباح الكلاب .

ومع حلول المغرب عاد الجميع وهم مسرورون بما كسبوا من صيد فكانت جعبتهم طافحة بالأرانب والحمام البري والدرج والقطا وما إن وصلوا المنازل حتى شرعوا بتنظيف ما صادوه واضطرمت النيران لأجل الشوي وعمت الضوضاء بين البيوت وكأن لديهم عرساً ما .

وكان آخر من وصل كل من الأمير ومناور اللذين آثرا ترك البازيارية وجلبتهم يسبقونهما بالوصول .

قال سمهر حين لمح مزود يدور بين المنازل كأنه قد أضاع شيئاً :
ـــ علام يبحث هذا المقيت ؟
ـــ مزود ؟
ـــ من هو أكثر مقتاً من ابن عمي مزود وكم يثقل على نفسي وجوده بيننا .
ـــ إنه على هذه الحال منذ أيام وكلما حل الظلام يدور حول المنازل حتى ينتصف الليل .
ـــ يا له من تيس مسعور .

ضحك مناور وقال :
ـــ قلما أراك حاقداً على شخص ما كما تحقد على ابن عمك مزود .
ـــ لا أحس بدخيلته إلا مرتعاً للثعابين وأن سموماً تتسرب من أنفاسه بل إنني كلما نظرت إلى ملامح وجهه أرى أن شيئاً ما يكرهني على أن أشيح ببصري عنه كما أنه يظن أنني لا أدري بدسائسه التافهة التي لا يمل من الانهماك بترتيبها ضدي .
ـــ أظن أن كل طمعه هو بشقيقتك .
ـــ أولى به أن لا يتأمل يوماً بأنه سيحصل عليها .
ـــ إن كل العشيرة تعلم أمر رفضها الدائم له .
ـــ يسهل عليَّ أن أزفها لأعدائي على أن أزفها له وليس لأحد أن يرغمها عليه وأنا على وجه هذه الأرض وإن كان رجلاً حقاً فليتجرأ على رفع أنفه أمامي .
ـــ لا يا صديقي لن يفعل فهو صاحب عزيمة هشة أنهى مناور كلامه واستأذن من الأمير على أن يعود بعد قليل ليكمل السهرة في ربعته .

ترجل سمهر عن كهرمان وهمَّ بدخول الربعة التي بدت طافحة بالرجال حين أبصر شميم تقف أمام المحرم وتمسك ذقنها بيدها كأنها تنتظر أحداً ما عرج سمهر نحو شقيقته وقال :

ــ هل تنتظر شقيقتي زائراً ؟

ابتسمت شميم وأجابت :

ــ لا يا شقيقي إنما أتفرج على الأطفال كيف ينزعون الريش عن أجساد الحمام ، يبدو أن الحظ لم يبخل عليكم بالصيد الوفير .

ــ لا أخفيك بأنني لم أشارك بصيد شيء منه لكن إياك أن تقولي هذا أمام عذوب .

ضحكت شميم وقالت :

ــ وما شأن عذوب ؟

ــ هي من استفز همتي من أجل الصيد وقد تحدتني بأنني لن أصيد ولا حتى أرنباً وهذا ما حصل فعزيمتي لم تنجدني ولا حتى بحمامة .

ــ إذاً كنت تتفرج .

ــ لا فقد تركتهم وأردت الاختلاء بروحي فتوغلت بين خرائب الأندرين ليتك رأيتها فكل ما فيها ينبيء عن أنها كانت مدينة عظيمة الشأن إلا أن الزمان خانها. ثم جاءني مناور ليصطحبني إلى قصر ابن وردان ولم أتخيل يوماً أن تضم الرمال بين جوانحها قصراً مثله إنه بذروة الروعة .

ــ أرى أن عذوب قد أفلحت في إعادة بعضاً من مزاجك السابق .

قالت شميم هذا وبرفق رفعت يدها لتضعها على كتفه وتابعت تقول :

ـــ ليتني أرى وجهك وهو مستبشر كصباحات الربيع رباه كم أتمنى أن تحمني أخي الغالي من تكشيرات الزمان وأن تزف الأيام له البشرى تلو البشرى وأن لا يقاسي بعد اليوم أحزاناً ولا ينظر إليه يوماً الحظ ساخطاً . وبحنية شديدة أضافت شميم تقول :

ـــ أما الذكريات الأليمة يا أخي فستغطيها راحة يد النسيان قالت هذا وأنزلت يدها عن كتفه في حين بقي محدقاً بعينيها وليس به رغبة لأن يبتعد عنها بل أحس أنه لأمر ما يريد البكاء وما الذي يدفعه لهذا الإحساس لم يدرك سمهر ما وراء شعوره هذا فاستأذن شقيقته وولج إلى ربعته حيث ينتظره الساهرون .

في تلك الليلة وبعد أن هجع الجميع والأمير أيضاً كان قد غاص في نوم عميق إلى أن هب على صياح أمه تقول :

ـــ ولدي ولدي إنها شميم

نهض الأمير من فراشه يسأل :

ـــ شميم ما خطبها ؟

ـــ إنها ليست بفراشها ليست بخدرها ما أشد ويلي ؟

قالت الأم هذا بلهجة تؤكد لسمهر ما تبادر لذهنه في أن تكون قد هربت مع الرجل الذي تحبه الرجل الذي حاول سمهر مراراً أن يعرفه الرجل الذي لمّح عنه مزود .

ـــ لابد أنهم سلكوا جهة الشمال .

بهذه الكلمات صاحت عذوب .

وباستغراب سألها سمهر :

ـــ وما الذي أدراك ؟

ـــ منذ حين سمعت وقع حوافر جواد تتجه شمالاً لكن أمر اختفاء شميم لم يخطر لي على بال .

وعلى ظهر كهرمان ألقى الأمير نظرة إلى السماء مستنجداً بالرب هامساً لنفسه : إن النجوم راجفة مرتعشة ولهبات الريح رعدة منذرة .. أخشى أن يكون هذا الليل ملطخاً بالأسى وملوثاً بالدم .. أخشى أن عيون القدر ترنو إليَّ ويقدح منها شرراً يفزعني .

وراحت كهرمان تعدو مسرعة وراءها حصان على ظهره مناور فقد آثر سمهر أن لا يصطحب أحداً غير مناور لعله يدرك شقيقته ويعيدها قبل أن يدري أحد بهروبها فيقصي بذلك شبح الفضيحة بعيداً .

وقبيل الفجر بقليل أقبل الاثنان على فسحة صخرية تمدد فيها ثلاثة قتلى كان القتيل الأول مزود وقد غرزت ببطنه حربة طويلة وإلى شماله وعلى بعد خطوات كان القمر يلقي بضوئه الفضي على صريعين مسجيين قرب بعضهما بعضاً إنه فضل شقيق مشعل وشميم وقد غرز بقلبها خنجر وبلحظة واحدة أدرك سمهر كل ما جرى وعرف أخيراً السر الذي اعتصم طويلاً وراء شفتي شميم .

أما الذي جرى فكل شيء ينبيء عنه بوضوح فالرجل الذي تعشقه شميم هو ابن خالها وعدو عشيرتها فضل ولعلمها بأن زواجها منه أمر محال فقد خططت للفرار معه ومزود كان يحدس أمر هروبهما لذا كان في الأيام الأخيرة يمضي الليل على ظهر حصانه وحين فرا سوية لحق بهما وقتل فضل وأراد أن يعيد شميم إلا أنها غدرت به وقتلته انتقاماً لحبيبها وختمت قصة حياتها بأن غرزت خنجر فضل بقلبها .

اقترب الأمير من شقيقته وصاح :

ــ أواه شميم ضرب لي القدر موعداً مع الدماء والدموع مع النشيج والنحيب وألفيت أرواحاً مشطورة حمل رأسها ووضعه بحنية بين يديه متذكراً كيف وضعت يدها على كتفه منذ ساعات قليلة وانحنى يحدثها بصوتٍ ينم عن أساه .

ــ شميم أختاه هل أنت من الروح خاوية ؟ أغادرتك خفقات الحياة ؟ قولي لي بأنك تهجعين وأصابك وسن ثقيل .. بكفك أنت القدر نهب منك الحياة ..
شميم إنه قلبك الذي احترق أشم عبق دخانه كيف حفزك قلبك ؟ الذي عنه كنت تدافعين واجترأت يداك على غرز خنجر بلبه ؟

وبهدوء قبض بيده على قبضة الخنجر العاجية وسحب شفرته المرتدية دماً من الفؤاد المشقوق ورفعه عالياً وخاطبه بصوت أبحه الألم :

ــ هل تفقه بأنك فتحت ثغراً لتفر منه الروح على عجل ؟ هل تفقه أنك أكلت قلباً واحتسيت دماً ؟
حذار أن تنسى .. حذار بقـــلب من أنت غرزت وأي نبض اخترقت .. حذار أن تنسى أنك طردت روحاً إلى الأبد .

أنزل الخنجر ورفع بصره إلى السماء قائلاً :

ــ رباه من موت إلى موت هل كتب على وجنتي ملح الدموع ؟ ويلاه ما دريت أيها الهوى أن القدر حاك لك مكيدة ومرة أخرى تراجع القلب مهزوماً مقتولاً وانصرف الحب خائباً مغلوباً لِمَ دوماً يتلاقى الحب والموت ؟

عاد يخاطب شميم التي أبداً لن تسمعه :

ـــ أختاه بعد أن حسب قلبك أنه سيلقى السعادة تقدم الموت ليحتل مكانها مرر أصابعه على جفونها التي أسدلت بذبول موجع وعاد يكلمها :

ـــ وا أسفاه شميم فبعد الآن لن ترفع الجفون ثم نظر إلى فضل وخاطبه :

ـــ لابد أن روحيكما الآن في الفردوس ولا يفصل بينهما إلا حشد من شقائق النعمان .

رفع بصره إلى السماء حيث كان يسطع نجم ويرف على نحو كأنه يكاد يتفق شذراً شذراً ليتهاوى على جسد شميم المسجى وكانت النيازك تهرول محترقة في حين راح القمر يحدق بصمت تحيطه هالة ضوء شاحبة .

ـــ أتساءل أيها القمر هل ستتمكن من البزوغ ثانية بعدما شهدته في هذه الليلة القاتمة الأحداث .



١٢

هاهي ذي الروح تولي باكية وتصيح :
من يخفف نتفة من ويلي ؟
من يدرك ما وراء نحيبي ؟
هوذا عويلي وعبر الصحارى ذريه أيتها الريح .
فمرغمة نضوت عني القلب العزيز وأخليت الجسد للموت
ويا لسعادتي التي كتب علي أن أندبها أبداً .
أغشي يا رب السموات إلي روح صرعتها مطاوي الأقدار
إلي روح يضنيها حب للخسران كان أوجع تذكار .

❊

بعد يومين فقط مما حدث أعلن الأمير بربعته بأن العشيرة سترجل إلى الجنوب إلى وادي العزيب(*) فقد قتل أحد سادة الوهبان على يد مزود من الراجح والآن لا تستبعد حرباً تطلب ثأراً فليس هناك من يصغي إلى نداء الدم أكثر من البدو وسرعان ما تضرب النساء صدورهن ويشددن شعورهن وسيكون هناك قبور كثيرة تنتظر ضحايا الثأر .

في فجر اليوم الذي حملت فيه البيوت على ظهور الجمال استعداداً للرحيل إلى وادي العزيب امتطى الأمير صهوة فرسه وأزمع على أمر ما قبل أن يرحل فقرب جبل عبيسان هناك حجر مرمري ومن ترقد تحته تنتظر زائراً .

(*) وادي العزيب : يقع شمالي شرق بلدة سلمية بحدود ٦٠ كم .

وبعد قليل وقف الأمير مواجهاً للحجر الأبيض الذي انتصب فوق القبر في حين ساد الهدوء وعم السكون من حوله وهمس :

ــ فاطم جئت أودع فؤادي المسجى قربك قال هذا ولسعت دمعة فائرة وجنته اليسرى ومن صدره خرجت أنة حراقة تكاد تشق أعماق القبر .

ــ لِمَ تحتم على سعادتي أن تأفل؟ لِمَ توقف قلبك عن النبض مبكراً؟!.. قد تخيلتك وأنت بين أحضان جراح وتخيلتك وأنت تتألمين لبعدي، لكن لم أتخيل يوماً أنني سأواجه قبرك كما أنا الآن . حقاً إن تهكم القدر لاذع .

ومن بعيد هاج صوت القطا تزفه الريح أنيناً ، في حين بقي الأمير ممتطياً ظهر كهرمان التي سكنت بمكانها كأنها أحست برهبوت الموت .

وعاد سمهر يحادث فاطم :

ــ تعتريني رغبة قوية بإخراجك من القبر حتى لو كنت عظاماً لا غير فأنا أتوق إليك .. لن أنزل عن ظهر فرسي فلو فعلت لما بارحت هذا المكان أبد الآبدين لبث يحدق ساكناً بالحجر الأبيض بجمود غريب وفجأة تحركت كهرمان بتمرد تريد أن تغادر وبأيدٍ مرتعشة أمسك الأمير عنان فرسه التي أذعنت لرغبة فارسها وهدأت .. عاد لأفكاره الأليمة يحدث القبر :

ــ فاطم كيف لقلبي أن ينساك فكما أن الكون ليس محدوداً بقبة السماء كذا حبي لك لا حدود له وبهواك قلبي سلك أسفاراً بعيدة وأشك بأنه سيفسح مكاناً لامرأة أخرى . وسأكون ممتناً للزمان إذا

ما شعرت يوماً بأن ذكراك قد هوت في ماضٍ سحيق.. وأني تخلصت من شعوري بالصدمة كلما اعترفت بموتك لكن ويلي لو أن ذكراك ظلت تقطنني.

تراجع قليلاً إلى الخلف وكأنما حركه انفجارٌ مكتوم بأعماقه وكأنه أخيراً قرر الابتعاد إلى الأبد وعقد العزم على أنه لن يرى هذ الحجر المرمري مرة أخرى قال وهو يستدير إلى الخلف:

ــ فاطم أعلم بأن هناك لحظة تنتظرني هي اللحظة التي لن يكون بعدها لحظة واحدة أعلم بأنني سأموت لكنني أتساءل متى ستهلكني هذه الحياة؟.. متى سيهمس لي الموت آن الأوان؟ وبأية حجة سيرديني وبنهاية أي درب يتربص بي؟

وضع يده على قلبه وصاح بتمرد:

ــ هذا القلب ليس إلا الطريدة التي سيفترسها الموت في يوم من الأيام. وانطلقت كهرمان تعدو بفارسها وكأنما تفجرت بداخلها طاقة نارية كأنها أحست بألم الإنسان المعذب الذي يعتلي ظهرها فأرادت أن تفر به مسرعة عن الحجر المرمري تظن بأنه سينساه بمجرد الابتعاد عنه إنها لا تدري بأن ذاك الحجر ستبقى صورته مغروسة في ذاكرته أبد الدهر.

إنها لا تدري أن الإنسان عندما يصاب بألم بليغ قد لا يؤثر معه البقاء في الحياة إلا إذا نسي نفسه من جديد وتغافل عن الأسى والألم، فحتى القلب الذي تتوهج بلبه أروع عاطفة يمكن للإنسان أن يحسها.. عاطفة الحب عندما يميل القلب من حيث لا يدري ذلك

السر العصي على الإفهام فحتى القلب يعذب حامله وقد يفلق روحه ألماً ويدفن صاحبه تحت التراب .

مر شهران على العشيرة وهي تتوغل بعيداً عن الوهبان وها هي ذي ترتحل من وادي العزيب شرقاً حيث إسرية(*) لتصبح على مقربة من آبار التناهج(**) .

وفي إحدى أمسيات أيلول حيث يسمح الصيف بتسلل البرودة إلى نسائمه .. وبينما سمهر يضطجع أمام ربعة البيت بعد أن خلت من الساهرين تراءى له من بين العتمة فرس بيضاء لا يتوه عنها قط إنها خود التي بعثها ليلاً للأمير مشعل لتكون مطيته في المعركة التي جرت بينهما منذ شهور .

هب سمهر من مكانه محاولاً أن يميز من الذي على ظهر خود وما هي إلا لحظات حتى ترجل عنها فارس ملثم بلباس أبيض وعباءة بنية اللون ومعه فارسان آخران ترجل كل منهما ورفع اللثام عن وجهه وألقى السلام ثم احتضنه سمهر بحرارة ورحب بضيفه الأمير مشعل .

وأمر سمهر لفوره بإعداد العشاء ودخل الجميع الربعة وقدم سمهر القهوة لضيوفه بنفسه وبعدها جلس جانب مشعل وعاجله بالسؤال :

ــ أي درب جلبتك إلينا ؟

(*) إسرية : هي أطلال قصر دارسة تقع على طريق حمص الرقة .

(**) آبار التناهج : آبار كانت تعتبر من أهم موارد الماء بالنسبة للبدو وهي تقع جنوبي إسرية بحدود ١٠ كم وشمالي جبال البلعاس بحدود ٤٠ كم .

رد مشعل بلهجة تحمل معانيَ كثيرة :

ــ إنها درب عزمت على سلوكها منذ زمن ويا ليتني فعلت ذلك أبكر قليلاً ..

فهم سمهر ما قصده مشعل بكلامه وقال :

ــ ما أشد أسفي لفجيعتكم بالمرحوم فضل

ــ ونحن نأسف لموت شميم إن موتها فجيعة لكلا العشيرتين فبجسدها كانت تتجاور دماء الوهبان والراجح . صمت مشعل قليلاً ثم أردف يقول :

ــ يا ليته أخبرني بأمر حبه لشميم لكنه قدرهما الذي زج بهما بعشق أدى إلى نهاية واحدة .

قال سمهر بتحسر :

ــ وأنا يا ليتني أدركتهما قبل المقيت مزود وقبل أن تجري الدماء لكن القدر صالب الرماح في وجهي .

ــ ملتوية هي دروبنا .. ملتوية على نحو يجلب العجب فنحسب أننا نمشي دروباً تؤدي بنا إلى خالص الذهب في حين تقودنا إلى أشواك السموم .

ــ إن ما يحيرني كيف عَلِمَ مزود بأمرهما ؟

ــ إنه السافل عرار وقد قتله أخي منيف منذ أيام عندما اكتشفنا ما كان من أمره فأنت تعرف كم هو كاره لكم وتذكر كيف أخبر الأتراك بأمر دخولك الدير لأجل فرس أخيك وقد كان على اتفاق مع مزود بأن يعمل حيلة ما تودي بحياتك . وهو من وشى بأمر فضل

وشميم إلى مزود والوهبان كلها تعرف بأنه شخص تجري النذالة بدمائه لكن أحداً لم يتوقع أن يقدم على فعلة دنسة كهذه .

ـــ إنه من أولئك البشر الذين يتقنون ألاعيب الأفاعي ومزود من أولئك الذين تزدحم نفوسهم بالسموم .

ـــ والآن إنني أؤمل كثيراً بأن تتوطد العلاقات بيننا وأن نتطهر عن كل رجس الكراهية بعد أن مضت سنوات وهي مغلولة ببواعث الضغينة والحقد .

ـــ أنت تعلم أن مودتي لك أمر لم أخبئه يوماً وأنا لم أكن راغباً بالتجافي الذي بيننا وكثيراً ما ساءني أن تمر علينا السنون ونحن أسرى عداوات قديمة .

ـــ والآن بعد ما حصل بات أمر الصلح بيننا أمراً ينبغي التعجل بإتمامه وأود لو يتمخض لقاؤنا هذا عن اتفاق ما يكون مؤداه الصلح بين الوهبان والراجح وإذا ماتم ذلك فإنه سيكون معروفاً ستحفظه الصحراء لكلينا طويلاً .

ـــ وأنا تملؤني الرغبة بخدمة الصلح بيننا .

ـــ يشرفني كثيراً أن أطلب يد شقيقتك عذوب لشقيقي منيف .

قال مشعل هذا واستدار نحو أحد الرجلين اللذين يرافقانه وأكمل كلامه :

ـــ إنه شقيقي الأصغر منيف .

وأشار إلى الآخر إنه ابن عمه رميح .

أجاب سمهر :

ـــ تشرفني معرفتكما ويشرفني أن يغدو منيف زوجاً لأختي ، وأتمنى

بشدة أن تنجح خطة السلام هذه وأن لا يكون مصيرها كمصير محاولة أبي القديمة عندما تزوج من أم شميم عمتك عذرا الفيصل كانت البداية ناجحة لكنها سرعان ما علقت بأوحال الأحقاد القديمة وأما عن زواج منيف من عذوب فأفضل أن يتم في الربيع القادم .

ــ لك هذا وإني أوقن بأن الصلح سيكون ثمرة هذا الزواج تناولوا العشاء ونام كل من منيف ورميح في حين جلس سمهر يسامر ضيفه مشعل أمام الربعة مستمتعين بالليل الرائق .

سأل مشعل :

ــ كيف هي أيامك ؟

أجابه سمهر بعد صمت :

ــ أيامي تملؤها أحزان جعلت من قلبي متكأ لها وبت لا أعرف طعماً للراحة ويتملكني خوف دائم مما تحيكه الأيام من وراء ظهري .

ــ عار على الرجل أن تحفر الأحزان أخاديد بوجهه وما أدراك بما يخبئه لك الغيب فقد تتأتى لك السعادة من قدر أكنته لك الحياة . بقي سمهر صامتاً ولم يتكلم وكأن شيئاً ما قد أخرسه فارتأى مشعل أن يغير وجهة الحديث فقال :

ــ إن إسرية مكان بعيد عن أماكن نجعتكم المعتادة رد سمهر :

ــ إن إسرية أرض طيبة هذا عدا عن قربها من آبار التناهج فهي آبار ماؤها عذب طافح . وقد أمعنت في الابتعاد بعشيرتي بهذا القدر عندما توقعت أن دم فضل سيثير همم الوهبان للثأر .

ــ وهذا حقاً ما حدث إلا أنني خففت من حدة ثورتهم عندما أعلنت أنني لن أطلب ثأراً لدم أخي فهو الذي أقدم على خطف فتاة من الراجح وبسببه قتل اثنان من الراجح .

ــ أقدر لك كثيراً ترويك بهذا الأمر .

مضى الليل كله وكل من سمهر ومشعل لا يمل من محادثة الآخر والتكلم في أمور شتى وعند الفجر سرى الأمير مشعل ومن معه بعد وداع حار للأمير سمهر .



١٣

هناك على صخرة وقف ذئب وقد ولى ظهره لمشرق الشمس
أيها الذئب لم تطيل النظر إلى حيث تلقي الشمس بسرابها ؟
لِمَ لا تتقدم ؟ هل هناك ما يخشى ، اطرح عنك كل خوف
وتقدم هل تهاب الدم والجروح ؟ هل أضنتك الندوب ؟
بم أنت مرتاب ؟ ألا يستهويك ما وراء رعش السراب ؟
تحرك الآن ولا تتريث .

❀

جاء تشرين الثاني تزفه الأمطار معلناً عن رغبتـه في بعض الاخضرار فبدت الأرض راضية وجادت بأعشاب خضراء ندية كانت أجمل مكافأة لأهل البادية بعد أن عانوا من صيف مَلَّك قياده لسطوة الشمس الذبائحية ووحشية لهبها .

وفي هذا اليوم ولدت أحد أفراس الأمير سمهر مهراً جميلاً أعطاه الأمير لدارم وسط تساؤلات كثيرة من قبل أفراد العشيرة الذين يعرفون بأمر خود لكن أحداً لا يعرف من الذي اقتادها إلى مشعل في تلك الليلة المقمرة .

وقفت الأم قبالة ابنها الذي كان يقف متكئاً على أحد أطناب البيت وقد بدت علائم العبوس مقروءة بين ملامح وجهه مما دفع الأم لتسأله :

ــ مالي لا أرى على ثغرك حتى طيف ابتسامة ؟.. لِمَ احتل العبوس ملامح وجهك وكأنها قدت من الصخر ؟

ــ بسمتي يا لبؤسها فقد اجتثتها الأيام من على شفتي رغماً عني .

عاجلت الأم لتقول بلهفة وعزم :

ـــ إنس الماضي

وباحتجاج أجابها :

ـــ حاولت مراراً لكنني أخفقت .. نعم أخفقت بأن أنسى أناساً عزيزين علينا غادرونا إلى التراب وليس بوسعنا إلا أن نطلق شفاهنا بالحسرات المتفجعة عليهم فقد أخفقت بأن أنسى فاطم وسعادتي التي لا تعرف طريقها إلي ، فهي دائماً عندما تقترب مني يلحق الوهن بعزيمتها فتتشتت وتضل الطريق ، وأخفقت بأن أنسى شميم يا ليتها تجاسرت على نطق اسم من تعشقه .

وبعد صمت عاد يتكلم معلناً لأمه قراراً اتخذه :

ـــ أماه بعد غد سأقصد دمشق يرافقني مناور ودارم والعبدان حبشان ومبارك فبحوزتي أشياء قيمة ما زالت لدي منذ سلبنا قافلة بغداد أباريق من الفضة المذهبة وصناديق من الخشب المطعم بالعاج عدا مضارم البخور البرونزية والصحون الخزفية البراقة .

ـــ لا أظن أن بك حاجة لثمنها .

ـــ لا ليس المال وراء ذهابي إلى دمشق إنما أريد أن أتبين بنفسي ما ينويه الأتراك نحونا فمشكلتي مع الوهبان غدت الآن وراء ظهري بعد زيارة مشعل ولا يشغلني إلا أوغاد استامبول .

ـــ أي ولدي لا أريد أن أوصيك بسلامتك وابتعد عن كل ما يلوح به الأذى .

ـــ لذا سأتنحى بطريقي عن المدن والقرى .

وفي اليوم المحدد وفجراً غادر الأمير عشيرته قاصداً دمشق يرافقه مناور ودارم وكلٌّ من العبدين حبشان ومبارك يقودان بالتناوب فرساً شهباء اللون اصطحبها سمهر معه كجنيبة . كان ذلك الصباح بارداً إلى أن انتصف النهار وانبرت الشمس تلثمه بدفئها .

وواكبتهم أسراب القطا حتى بلغوا جبال البلعاس(*) ومن بعيد لاحت لهم طوابير من الحمير التي تنقل الحطب لأهل حمص وحماة وسلمية فارتأى الأمير أنه من الأفضل التنحي عنهم شرقاً حيث جبل شاعر(**) وإمضاء الليلة هناك فقد يفطن أصحاب الحمير لدى رؤيتهم لجماعة سمهر بأن بينهم أميراً ما عندما يبصرون العبدين والجنيبة التي يقودها أحدهم .

وبعد قليل بدا جبل شاعر قريباً منهم وتراءت لهم تربته الحمراء وصخوره البيضاء وغابات أشجار البطم التي تكتنف سفوحه كأنها تود أن تكتفه .. أما أشجار السويد(***) فقد تبوأت قمته على نحو يبعث على دهشة البصر . وقبل أن يبلغوا جبل شاعر بقليل لاحت لهم عانة بقر وحش تتجه شرقاً ، وما أسرع ما طلبها سمهر يتبعه دارم وما زالت كهرمان تعدو بسرعة وكأنها تجد بذلك أكبر متعة حتى أدرك الأمير العانة فأفرد منها بقرة وراح يطعنها برمحه الطويل يساعده بذلك دارم .

(*) جبال البلعاس : من جبال البادية الشامية .

(**) جبل شاعر : أحد جبال البلعاس .

(***) أشجار السويد : من الأشجار التي يستفاد من خشبها .

كانت فرحتهم كبيرة بالطريدة التي حصلوا عليها رغم أن الزاد لا ينقصهم لكن رغبتهم بالصيد تأججت ما إن أبصروا العانة وغذوا الخطا كي يلغوا جبل شاعر قبل أن يحل المغرب حتى يتسنى لحبشان ومبارك سلخ البقرة وتنظيفها ثم شيِّها وهناك أسفل جبل شاعر وبين أشجار البطم(*) العتيقة اختار الأمير وصحبه مكاناً يقضون فيه ليلتهم.

تركت الخيول تعب الماء من الحوايا الصخرية وبسطت السجادة وأضرمت النار وحضرت القهوة وانهمك العبدان في إعداد الطريدة كان المكان يحفل بالجمال والسكينة التي أغدقتها عليه أشجار البطم وليس بوسع المرء في مثل هذا المكان إلا أن يرهف سمعه لشدو القطا الذي لا ينقطع وأنى للطمأنينة أن تكون إلا في هذه البراري حيث السكينة التي تتسلل عبر مسالك الروح بخطا رشيقة لتسرق مفاتيحها وتدفعها إلى أن تشرع أبوابها لصفاوة الآفاق البعيدة ولهذا الاطمئنان الذي يحار المرء بمصدره في هذه البراري الفسيحة ليلاً وبعد عشاء دسم اضطجع سمهر متكئاً على يده وجلس قبالته مناور :

قال سمهر :

ــ ليتني اصطحبت شاهباز فالمكان يضج بالقطا عدا الغزلان التي كثيراً ما يصادفها المرء، لكنني خشيت أن رؤية الباز معنا تلفت

(*) أشجار البطم: أشجار ينفع بخشبها وعصير ثمره المشابه لزيت الزيتون وكانت جبال البلعاس مغطاة بغابات من هذه الأشجار إلا أن الاحتطاب منها بشكل جائر قضى على معظمها والآن تتم حمايتها وإعادة تشجيرها.

الأنظار وهذا ما لا أريده . بقي مناور صامتاً على غير عادته مما أثار استغراب سمهر فسأله :

ـــ وأي شيء يمسك لسانك عن الثرثرة عادتك المفضلة

وبلهجة جدية أجاب مناور :

ـــ اسمع يا عزيزي منذ وقت وأنا أود أن أخبرك بخبر يهمك لكن الخشية من أن أزيد أحزانك منعتني من ذلك طويلاً والآن لا يسعني أن أتردد بالبوح به فهو دائماً يلف حول لساني ويتعبني كثيراً أن أحتفظ به .

ـــ من فورك تكلم وإلا خنقتك .

ـــ إنها روض قد قتلها أخوها بعد أن اكتشف أنها حملت سفاحاً من رجل ما رفضت أن تلفظ اسمه .

صاح سمهر :

ـــ ما أوحش أيامي من قال إن المواجع تعوزني ، روض ما أفظع ميتتك رفقاً بي قدري فسرعان ما تلقي على أردية الدماء وبالمآسي رجماً ترميني .

ـــ إنه قدرها .

ـــ غدر القدر طالما أجفلتني مواجهته وما أكثر ما وجدته يقبع أمامي رباه خفف من عتمة أقداري .

ـــ أنت من أتاح للقدر بأن يسن سكينته عندما مضيت ملبياً شفاه روض . كان عليك يومها أن تمسك بأعنة عاطفتك إلا أنها حرنت وشردت بك وجرفتك إلى مهاوي الإثم .

ـــ ما أشد ندمي ..

قاطعه مناور :

ــ من الجلي أنك إذا حملت نفسك حملاً ثقيلاً من الألم فإنه لا يؤدي بك إلا إلى البؤس وأنا لم أخبرك كي تندب الماضي إنما واجبي تجاهلك دفعني لإخبارك فكنت ستلومني لو أنك دريت بالأمر بعد حين وعلمت بأني كتمته عنك وليس في وسع الندم محو الخطيئة والماضي لا يرجع ومن المحال تبديل ما كان .

ــ لكن الخطيئة هي عمل أنا صاحبه ووخز الضمير كيف لي مجانبة تعذيبه ولا أستطيع إلا أن أخجل من خطيئتي وألوم نفسي وأشعر بقذارتي .

ــ كما قلت لتوي نحن عاجزون عن تغيير ما كان ، والماضي ميت هل في وسعك أن تعيد الحياة إلى من فقدها أي مات ، وكذلك الماضي لن تستطيع تدارك ما أتلفته يداك .

رد سمهر بنبرة مخضبة بالأسى :

ــ وهل ستكف أطياف الماضي يوماً عن مهاجمتي ومن ذا الذي قال بأنه ميت ليته يموت حقاً ، فذاكرتنا ليس فيها إلا الماضي الذي يدفعنا على إطلاق آهاتنا رغم أنوفنا إلى متى تتحمل هذه الروح المدججة بالنكبات وبالبؤس هذا القلب سأحيي أول طعنة تصيبه لن أعشق بعد الآن .

ضحك مناور وقال بسخرية :

ــ وقلبك الطماع .

ــ سأدفنه تحت تلٍ من الرمال .

ــ عبثاً ما تخفي الرمال .

أمضى سمهر ليلته تلك تلسعه سياط الندم .

١٤

ويلك لا تعاود النظر إلى الماضي
فالسنون وراءنا تمحو آثار مواطئنا والزمن هو اليد التي تهدهد
على الأحزان لتنام
أنصت لنداء الأيام القادمة فالماضي قد ارتحل .

❀

كان الصباح هادئاً ونسائمه ندية لكن الشمس لم تُحَيِّه كعادتها إنما الغيوم استولت على السماء وحجبت زرقتها .

كانت جماعة الأمير قد اقتربت من دمشق بعد أربعة أيام من السفر وهذا الصباح اجتازوا بساتين الضمير وأصبح جبل حرمون بمرأى النظر .

ــ إن الغيوم تتجمع بكثرة عند الأفق ربما تريد أن تنبئنا أنها ستغدق علينا أمطارها قال دارم هذا مخاطباً الأمير الذي أجابه بصوت متراخٍ قائلاً :

ــ ليتها تدخر ماءها ولا تعطل وصولنا إلى دمشق ظهر هذا اليوم .

ــ لا أحب هذا الجو فكل شيء يوحي بالعبوس .

ــ إني أحب الغيوم لكن تجمعها عند الأفق أمر يتعب عيني وبهدوء قال مناور :

ــ إن الغيوم تبدو وكأنها ابتلعت قمة حرمون صاح دارم الذي لمح أرنباً .

ــ إنها أرنب ويجب أن لا تفلت منا .

بادره الأمير قائلاً :

ــ أظنك محق .

ومازال الأمير ودارم يطلبانها حتى غابا عن أنظار مناور والعبدين واقتادتهما الأرنب إلى بقعة فيها الكثير من الوهاد والأكمات تتناثر فيها الصخور الضخمة وكأنها تلال صغيرة. وبينما هما وراء الأرنب انطلق صوت إطلاق نار قريب جداً وبلحظة واحدة هوى دارم عن حصانه صائحاً صيحة متألمة مذبوحة ومضرجاً بدمائه ثم ارتعشت كهرمان يدفق الدم من صدرها وسرعان ما سقطت تزهق أنفاسها الأخيرة.

سارع سمهر إلى الاحتماء وراء إحدى الصخور القريبة شاهراً سيفه لا يدري ما يفعل وفجأة دوى ألم رهيب بكتفه الأيمن وترجرج كل شيء من حوله وبدا كما لو أن الشمس قد انشقت وكتفه ينزف دماً والعباءة مخضبة بالدم ورد سيفه إلى غمده وتمايلت الغيوم فوق رأسه، وكان في السماء سرب من الإوز يزعق بحدة على جرح الأمير الدامي ثم تلاشت من حوله الأصوات وحفت عباءته بالأعشاب وآخر شيء أحس به هو برودة الندى التي لسعت خده وفهدة سوداء كانت آخر ما تراءى له.





أيتها الفهدة الدهماء أأنت الواقفة هناك ؟
وبأبصارك المحيرة تحدجين الظباء
لا تتقدمين ولا تتراجعين
بم تاه بصرك وتحير ؟
إذا ترقبين الأفعى كيف تترأد بين شجيرات
الورد





فتح سمهر عينيه بتمهل وراح يحدق فوقه بدهشة كبيرة، فعندما أغمض عينيه آخر مرة كانت فوقه قبة السماء، وهاهو ذا يفتح عينيه ليرى فوقه سقفاً تعمه الزخرفة وتسوده مكعبات حجرية ملونة رصفت ضمن أشكال منسجمة وتحيطه جدران تغطيها ألواح خشبية ملونة مزينة بالكرمة بأوراقها وعناقيدها النافرة ذات الألوان الحمراء والخضراء المذهبة. وكان الضوء يتسرب من تخاريم نحاسية لنافذة زجاجها معشق بالألوان يعلوها قوس مزخرف بثمار الرمان والأعناب.

فطن سمهر لنفسه حين هم بالنهوض فآلمه كتفه الأيمن بشدة عندها تذكر الرصاصة التي اخترقته كان جرحه ملفوفاً بعناية فائقة ولكن ضماده لا يخلو من بقع الدم.

ـــ إنه دمي الذي أعرفه جيداً.

هكذا قال الأمير لنفسه، وهو يتمعن بضماد جرحه إلى جانبه لاحظ «قنينة» طويلة العنق ضيقة الفوهة بإذن مقوسة، على هيئة أفعى.

تناول القنينة وقربها من أنفه محاولاً تخمين ما في جوفها لكن لم تكن لها رائحة مميزة تجعله يتعرّفها صب منها نقطة على إصبعه وتكهن بأن ما في القنينة هو نوع من أنواع الزيوت.

وضعها مكانها والتفت إلى آنية زجاجية مفلطحة على نحو مضحك وبلا عنق ولا قاعدة ضيقة الفوهة، ليس لها مقبض بداخلها سائل لونه أصفر ضارب للحمرة بشدة.

ـــ إنه ولا بد الطيب الذي ملأ شذاه أرجاء الغرفة قال سمهر هذا لنفسه بعد أن شم رائحته وأعاد القنينة لمكانها حين تناهى إلى سمعه حركة من جهة الباب الذي ما لبث أن فتح ودخل منه رجل أسمر ممتلىء الجسم بدا واضحاً أنه خادم اقترب منه الخادم قائلاً :

ـــ يبدو أن ضيفنا الجريح عاد إليه وعيه . بتساؤل شديد قال سمهر :

ـــ أين هو سيدك ؟

ـــ سيسعد كثيراً لرؤيتك متعافياً سأخبره حالاً قال الخادم هذا ، ولفوره غادر الغرفة تاركاً سمهر غارقاً في خضم من الحيرة ولاح له بأنه رأى هذا الخادم في مكان ما .

فتح الباب من جديد ليلج منه خالد يرتدي قفطاناً طويل الأردان من القطيفة التي تدخل في نسجها خيوط من الذهب .

قال خالد :

ـــ كم يسعدني أن حال ضيفي قد تحسنت .

رد سمهر الذي ما زال غارقاً بالدهشة .

ـــ يبدو أن مضيفي رجل أعرفه بل ربما كان منقذي أيضاً

ضحك خالد وقال :

ـــ هل يؤلمك جرحك ؟

ـــ قليلاً لكن بحق الله خبرني ما كان من أمري بعدما طعنت ، من الذي أطلق علي النار وعلى دارم ؟ وماذا جرى لبقية صحبي ؟

ـــ إنهم بخير إلا دارم فقد تغمده الله برحمته .

قال سمهر بتحسر :

ــ هذا ما ظننته .. ماذا أقول فكل منا لابد أن يرحل في أوانه

ــ أما مناور والعبدان هنا في بيتي وقد وجدت صعوبة بالغة في أن يثقوا بي .

ــ مازلت لا أفهم ما جرى وقد خيل إلي أني رأيت فهدة سوداء حول عنقها سلسلة فضية ؟

ــ إنها فهدتي الغالية سلهاب فقد كنت قد خرجت إلى الصيد مصطحباً معي الفهدة التي تظن أنه خيل إليك أنك رأيتها إنها ماهرة بصيد الغزلان والأرانب وكان يرافقني أيضاً صديق حميم لي وهو شاب دمشقي يهوى الصيد وكذلك خادماي المخلصان عبدون وشقيقه خيرون .

ــ خيرون أظنه الذي جاء يتفقدني منذ قليل فهو يشبه عبدون الذي كان يرافقك عند نبع الحمام .

ــ بلى هذا صحيح وخيرون هو من أشرف على الاهتمام بك بعد أن أخرجت الرصاصة وواظب على دهن جسدك بالزيوت .

ــ أنت من أخرج الرصاصة ؟

ــ بلى فأنا طبيب .

ــ يا لحسن حظي مازلت لا أعرف من الذي أطلق علي النار ؟

ــ إنه كمين نصبه لك رجال شبلي باشا بعد أن علم بأنك ستدخل دمشق من ذلك الطريق فأسرع بإرسال رجاله ليتربصوا بك .

ــ ومن هو ذا الذي يفخر بنصر احترزه بأيد يجللها عار الغدر ؟

ــ لا أظن أن شبلي باشا يأبه للعار .

ــ أظنهم أجادوا بنصب ذلك الكمين إجادة مقيتة وهل المصادفة هي من قادتكم إلى ذلك المكان .

ــ بلى إنها المصادفة .

ــ رباه ليس من عادة حظي أن يكون بهذه القوة .

ــ فقد رأينا ما حدث بينما أنا وصحبي نجوس الآفاق حولنا من فوق تلة قريبة من البقعة التي أصبت بها وبدل أن نرى الطرائد التي نريدها للصيد أبصرناك أنا وفارس آخر تطاردان أرنباً فلحقنا بكم بعدما تبادر لي أن الفارس الذي على ظهر تلك الفرس الشقراء شخص أعرفه لكن إطلاق الرصاص سبقنا وعندما بلغنا المكان كنت وراء صخرة مرتمياً على الأرض وكان رجال الباشا قد كفوا عن إطلاق النار بعد أن تأكدت لهم إصابتك وراحوا ينزلون من على تلة صخرية كانوا قد صعدوا إلى أعلاها واختبأوا منتظرين مرورك فاغتنمنا الوقت الذي سيأخذه وصولهم للمكان .

ومن فورنا لففناك ببساط كان معنا وجمعنا من حولك كل الأمتعة التي معنا وجعلنا عند رأسك الفهدة سلهاب بعد أن غطينا رأسك بمعطف لي رميته فوقك على نحو لا يدل على أنه يخفي شيئاً تحته وعندما أتوا يستفسرون منا عما رأيناه وإذا كنا قد شاهدناك تهرب فقلنا بأننا كنا نريد الاستراحة في المكان فسمعنا إطلاق النار وجمدنا بمكاننا أما الأمتعة فلم يلقوا لها بالاً وكان يكفي أن تخيفهم سلهاب التي راق لها أن تخدع أولئك الرجال .

ــ كم كان عددهم ؟

ــ كانوا ستة .

ـــ وكيف انتهى الأمر وكيف حدث أن مناور والعبديـن لم يصبهم مكروه؟

ـــ إن جماعتك رجال شجعان فقد قتلوا أربعة من رجال الباشا وفرَّ اثنان .

ضحك سمهر واستبشرت معالم وجهه قائلاً :

ـــ وكيف حدث هذا؟

ـــ كان رجال الباشا قد تركوا خيولهم مربوطة عند التلعة الصخرية وراحوا يجوبون المكان بحثاً عنك وهم راجلون وسرعان ما تلاقوا مع صحبك الذين كانوا قد أدركوا ما حصل ففاجؤوهم بأن كروا عليهم ونفذت رماحهم من اثنين منهم وعاجلوا اثنين آخرين وفر الاثنان الباقيان وقد طعن العبد حبشان بساقه لكنه الآن بخير وبعد ذلك قمنا بدفن صديقك دارم ثم جئنا بك على عجل .

ـــ أظنني مديناً لك بحياتي .

ـــ أنت مدين للقدر الذي قادني إلى ذلك المكان .

ـــ كم أشكر الله على ذلك ولن أغير من رأيي بأني مدين لك بحياتي لكن كيف أن رجال الباشا لم يؤذوك عندما وجدوك قرب المكان الذي تم فيه نصب الكمين .

ـــ قد عرفتهم إلى نفسي فالجميع هنا يعرف بأني صديق أرسلان باشا حاكم دمشق وتربطني بابنه غالب بك علاقة قوية .

ـــ إذاً أنت صديق لباشا دمشق .

ـــ إني أظهر كل مشاعر الود للباشا من أجل صالحي الخاص فأنا هنا صاحب أملاك كثيرة في دمشق وليس من صالحي أن أعادي الأتراك .

ـــ أنت لست تركياً ولست دمشقياً إذاً من أنت ؟
ـــ أنا كما يقولون هنا إفرنجي مسلم من بلاد اسمها ألبانيا واسمي الكسندر يردون واسم خالد اسم أطلقه علي أبي كي تسهل مناداتي على ألسن العرب .
ـــ أنت إذاً من اشترى خيولنا في حلب وأرسلت لي تحياتك مع رجالي ؟
ـــ نعم قد فعلت ذلك بعد أن حدثني عنك السيد سبنسر فهو صديقي أيضاً وهو من دلني على خيولكم .
ـــ ما الذي جعلك تترك بلدك ؟
ـــ إنه والدي الذي تركها منذ أيام شبابه فقد كان طبيباً وعاش معظم حياته في دمشق وترك لي أملاكاً لا يستهان بها ففعلت مثله وقررت أن دمشق هي بلدي كما أنني أحظى بصداقات كبيرة ويحيط بي أناس مخلصون وخادمي عبدون وخيرون أكثرهم إخلاصاً إنهما مغربيّا الأصل وأستطيع أن أعتمد عليهما بكل شيء .
ـــ ولقاؤنا عند الحمّام هل كنت تعرف حينها من أنا ؟
ـــ رغم أنني لم أرَكَ يوماً لكنني تعرفت إليك بمجرد رؤيتك .
ـــ لديك حدس قوي .
ـــ أظن هذا والآن يتعين علي أن أتركك كي ترتاح سأراك مساءً بعد غد فقد طلب مني غالب بك أن أرافقه للصيد ويصعب جداً أن أرفض طلبه ولا أظنني سأعود في اليوم نفسه .
ـــ وهل تثق بغالب بك بقدر يكفي كي ترافقه للصيد ؟
ـــ نعم فهو سيكون زوجاً لأختي .

قال خالد هذا ونهض متمنياً لضيفه النوم الهانيء .

١٦

ومن فورك اعترشي أيتها الكرمة
وانعمي بحلو الثار على قلب لم يبق منه
إلا كِسَر جاثمة فوق الروح .

❀

في اليوم التالي كان خالد غائباً عن البيت وكل شيء يوحي بالهدوء الذي سرعان ما يمله سمهر فقد أصابه الملل من كل ما حوله من هذه الغرفة المفروشة بالسجادات الثمينة والديباج المقصب بالذهب والفضة .

قرع الباب ثم فتح ليدخل منه مناور وبلهفة احتضن الأمير الذي ابتهج لرؤيته وبعد تبادل التحية أخرج مناور من جيبه صرة مليئة بقطع نقدية من الذهب كانت ثمناً للأشياء التي سلبت فيما مضى من قافلة بغداد .

سأل الأمير قائلاً :

ـــ ماذا رأيت في دمشق ؟

ـــ شوارع طويلة اصطفت فيها حوانيت تجار الأواني النحاسية والفضية وماعون المنزل وحوانيت صناع السيوف وصانعي السروج وأحزمتها وركائبها وكذلك صناع الأحزمة الجلدية والخفاف وأعنة الدواب المطرزة بالصوف الملون والجدائل والشراريب وقد صمت أذناي من أصوات بائعي الزيت والعسل والزيتون والدبس والتين المجفف .

ـــ وحبشان ومبارك أين هما ؟

ـــ إنهما هنا في البيت يعتنيان بخيولنا وقد أحسنت الرأي عندما اصطحبت معك جنيبة فمن كان يتخيل أن كهرمان ستقتل؟

ـــ بل من كان سيتخيل أن أرنباً ستقود دارم إلى حتفه؟

ـــ إنه قدره.

ـــ كم يوجعني موته!.

قال الأمير هذا بتحسر وألم ثم نهض مناور واستأذن من الأمير مغادراً إلى أسواق دمشق كي يبتاع البن والتتن وبعض الاحتياجات الأخرى أما الأمير الذي أخذ منه الملل كل مأخذ فقد نهض يمشي الهوينا وفتح الباب ليجد فناء تحيطه الأروقة والقباب المجوفة تزينها الهوابط والدلايات كالعناقيد المتدلية وفي الجهة المقابلة باب بمصراعين اتجه نحوه وفتحه وولج منه إلى غرفة تشبه غرفته التي كان بها وحين همّ بمغادرتها استوقفه قناع الصقر الذي كان قد رآه في السابق عند نبع الحمام وإلى جانب القناع علق سيف داخل غمد من الخشب المكسو بالجلد الأسود والموشى بالذهب.

نظر إلى القناع والسيف طويلاً ثم غادر الغرفة وأغلق بابها كما كان ثم لفت انتباهه باب صغير لا يكاد يدخل منه إنسان ذو قامة طويلة فتحه سمهر وأحنى قامته المديدة ودلف منه ليجد أن هذا الباب المنخفض يفضي إلى دهليز طويل مقبى من الحجر الذي تتخلله فتحات من الزجاج الملون.

سار الأمير بتوجس سرعان ما تلاشى عندما أفضى الدهليز إلى حديقة واسعة تتوسطها فسقية حيث نافورة ترش ماءها، كانت

الفسقية قاعدتها من الرخام مثمنة الشكل يحيط بها ثمانية أعمدة تقوم عليها قبة خشبية يكتنفها شريط من الكتابة البارزة، كان مكاناً يضمخه الصمت بالسكينة التي ما فتئت الروح تنشدها وتتفيأ بظلها وسرعان ما تسلل إلى الأمير ذلك الانتعاش الذي يبعث على الاسترخاء في حضن تلك النضارة.

وهناك بين الأشجار وتحت قبة ذات سقف هرمي من القرميد الأحمر كانت تدور متدلية الرأس قليلاً إلى الوراء مغمضة العينين منثورة الشعر وقد فردت يديها وهي تدور وأرجعتهما إلى الوراء وارتدت فستاناً أبيض بلون السحاب فبدا فستانها وهي تدور كسرب حمام أبيض يناور الأثير بخفة ورشاقة لا مثيل لها. ثم رويداً رويداً .. وسَّعت من خطوات دورانها وأخذت تركض وتدور تركض بأنوثة مؤرجحة ذيول فستانها الرحب الواسع، وشعرها الأشقر يعوم فوق ظهر أمواج من الريح، فبدت كطائر التم عندما يركض على سطح الماء يريد الطيران يريد الحرية وغزو السماء.

ثم ما لبثت أن أبطأت من دورانها وبدأت تفيق من نشوتها نشوة الانطلاق والحرية التي صنعتها بنفسها فارتمت على الحشائش مترنحة كالسكير وألقت برأسها الجميل بحضن الأعشاب الندية. بدا له أنها غفت قليلاً ربما أتعبتها محاولة الطيران الفاشلة التي كانت تقوم بها.

فطن سمهر لنفسه حين جاءت خادمة تصيح بصوت عالٍ ست بلقيس ست بلقيس قد جاءتك زائرة إنها لآلىء خانم.

هب سمهر من مكانه خشية من أن تراه الخادمة وعاد من حيث أتى وعبر الدهليز ثانية وهو يحس بأن أزاهير رقيقة نبتت على أديم روحه.

١٧

أتدري أيها الأمير أن مضرم البخور هو أيضاً مضرم نار
وإن جهر بعبق البخور جهر معه بنار .

❊

في المساء الذي وعد به خالد بأنه سيرى سمهر كان مساء يخبيء مفاجأة أعجبت الأمير كثيراً فقد حل السيد سبنسر ضيفاً على خالد .

قال السيد سبنسر مخاطباً صديقه الأمير :

ــ لا أظن أن شبلي باشا سيكف عن محاولته من أجل النيل منك .

عاجل سمهر بالرد :

ــ أثق بذلك تماماً .

ــ رغم أنه في آخر مرة رأيته فيها أقسم لي بأنه لم يعد يريد بك سوءاً حتى أنني صدقت يمينه .

ــ إني أعرف إلى أين تفضي مسالك أيمانهم هذه .

ــ لا خوف عليك في الصحراء لكن عليك بالحذر الشديد كلما اقتربت من قرية أو مدينة .

ــ الصحراء إني أثق أن هذه الكلمة تثير خوفهم إلى حد بعيد وهذا الباشا يا ليته اجترأ على مواجهتي وجهاً لوجه في الصحراء لجعلته يعود إلى حلب مسحولاً ومربوطاً بذنب حصانه .

ــ علمت أنه منذ أيام والدك الأمير خالد وعشيرتكم تشاكس الأتراك في كل مناسبة إلا في الحالات التي تنشغل بها الراجح بقتال مع العشائر المجاورة كالوهبان مثلاً فقد علمت أن هذه العشيرة هي من أكثر العشائر عداوة لعشيرتكم .

ـ نعم لكنني أسعى لصلح قريب بيننا .
ـ قد علمت أيضاً بما كان من أمر شقيقتك المرحومة شميم وشقيق الأمير مشعل أمير الوهبان .

تدخّل خالد سائلاً باهتمام :

ـ لماذا تريد الصلح مع الوهبان ؟
ـ إن الأمير مشعل كان أحد أصدقاء الطفولة بالنسبة لي لأنني بحكم إحدى العادات التي يراد من ورائها السلم وكمبادرة سلام من أبي أرسلت لتعلم الفروسية في بيت الأمير مجحم الفيصل والد مشعل وقد كنا أنا ومشعل في عمر واحد وربطتنا صداقة قوية لم يكن لكل العداوات التي تلت ذلك من أن تنال من صداقتنا .

سأل خالد من جديد :

ـ وهل غفر والدك للأمير مجحم تسببه بموت عمتك بلقيس ؟

أثار هذا السؤال كل دهشة الأمير الذي عاجل يسأل خالد :

ـ وما أدراك بهذه القصة القديمة ؟
ـ يسعدني كثيراً أن ترويها بنفسك
ـ رغم أني لا أحب ذلك لكن إكراماً لخاطرك سأفعل فقد قدر لعمتي بلقيس أن تكون فتاة العطفة(*) في حرب قامت بيننا وبين الوهبان

(*) العطفة : فمن عادة البدو اتخاذ العطفات (جمع عطفة بضم العين) والعطفة هي الهودج نفسه والعطفة لا تتخذ إلا في الحروب والمعارك الكبيرة وتكون العطفة بأن يأتوا وقت الحرب ببنت من أكرم بنات العشيرة وأجملهن وأطلقهن لساناً وبالعادة تكون البنت ابنة الشيخ فيركبونها ناقة عليها هودج ذو شكل خاص يدعونه العطفة

وكان النصر لهم فغنموا العطفة وبداخلها عمتي التي جرحت في أثناء المعركة وبعد ذلك ماتت متأثرة بجراحها . مما زاد العدواة بين الراجح والوهبان وراحت الدماء تجري من الطرفين إلى أن بادر بعض شيوخ العشائر الأخرى إلى الصلح بيننا فكانت عذرا الفيصل شقيقة الأمير مجحم ثمن ذلك الصلح وزفت لأبي وأنجبت له شقيقتي المرحومة شميم وماتت بعد ذلك بسنة واحدة وما لبثت أن عادت العداوة بيننا أعنف من ذي قبل .

عاد خالد لتساؤلاته الغريبة :

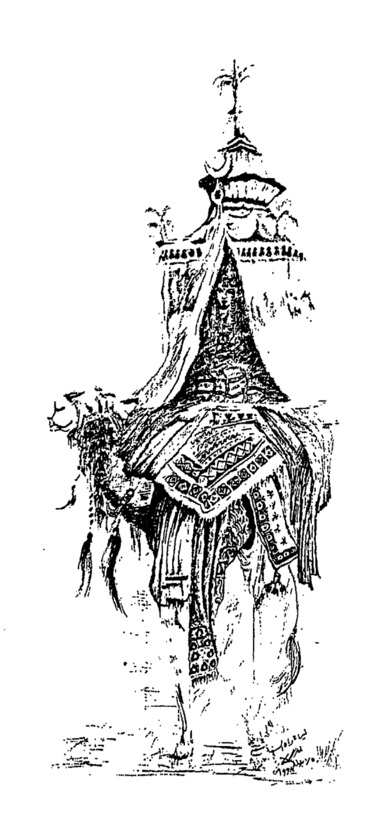
ــ وعمتك بلقيس أين ماتت ؟

ــ ماتت في بحلب حيث كان يشرف عليها أحد الأطباء الفرنجيين لكنه عبثاً حاول إنقاذها .

قطع عليهم الحديث دخول عبدون وهو يحمل بإحدى يديه صينية عليها كؤوس من الزجاج المموه بالمينا وفوهاتها مزينة بأشرطة مذهبة ومخرمة خلابة المنظر وباليد الأخرى ، حمل إناء غريب الشكل ثم راح يصب بالكؤوس من ذلك الإناء سائلاً أحمر قانٍ فاحت منه رائحة نفاذة ، ووضع أمام كل شخص كأساً وانصرف .

خاطب خالد الأمير الذي أمسك بكأسه يتأمله بإعجاب واضح .

ويدعون هذه البنت (العمارية) فتسوق ناقتها إلى الأمام وتكشف رأسها وتنخي القوم وتحرضهم على القتال ومن عادة البدو أن من خسر عطفته وأوقعها في يد عدوه لا يمكنه أن يتخذ بدلها ما لم يأخذ هو عطفة من عدو ويغنمها .



ـــ هل تشرب النبيذ ، أظنك تعرفه ؟
ـــ نعم وقد تذوقت الأبيض منه الذي يسمونه الفرموت .
ـــ إذاً تشرب الخمر ؟
ـــ تستطيع أن تقول إنني أشربه بالمصادفة لا أكثر كما إنني أحب نكهته وأحب تلك اللحظة التي يسري فيها بعروق الروح إنه كلحظة الألم الخاطف لحظة عاصفة مزلزلة تسري بأرواحنا وتزأر وجعاً وتغوص بأغوار القلب في سحيق الأعماق تغريك بالبكاء والفرار من كل شيء .

أنهى الأمير كلامه ورفع كأسه عالياً وقال بصوت عالٍ :

ـــ كما أن جمال هذا الكأس يدفع المرء إلى الشراب فلو أنك صببت لي السم فيه لشربته .

ضحكوا كلهم وشربوا النبيذ .

أنهى سمهر كأسه ووضعه جانباً وراح يحدق في الزاوية المقابلة له حيث انتصب مضرم بخور رائع محمولاً على رأس ماعز بقرون طويلة ملتوية بطريقة لولبية مزخرفة كان يفوح منه عبق البخور الذي ملأ المكان ، ثم راح يجول بنظره على الزخرفة التي انتشرت بسخاء على الجدران ، وعند الباب استقر بصره على فتاة شابة كانت تقف بالباب ترتدي ثوباً رافلاً لونه أبيض وله قبة من ريش النعام الأبيض تزين صدره أزرار فضية .. إنها الفتاة نفسها التي رآها البارحة تدور وتريد الطيران .

حدق بها طويلاً في حين وقفت هي الأخرى تبادله النظرات في حين التهى السيد سبنسر مع خالد بحديث حول الخمر وما لبث خالد أن رآها فمد يده نحوها قائلاً :

ـــ بلقيس يا شقيقتي الغالية تعالي لأعرفك إلى هذا الأمير البري فقد كنت دائماً تتوقين إلى مقابلة أحد زعماء البدو .

تقدمت ببطء وخجل، وحيت الأمير بأدب بالغ ثم حيت السيد سبنسر الذي بدا واضحاً أنها تعرفه منذ زمن طويل وجلست على الأريكة التي يجلس عليها .

رمقها الأمير بنظرات رصينة جداً متذكراً إياها عندما كانت تدور تحت القبة القرميدية الحمراء لكن شعرها الذي كان يهيم سابحاً قد التم الآن خلف عنقها مضفوراً كالعنقود .

سأل السيد سبنسر بلقيس :

ـــ هل تعرف بلقيس شيئاً عن البدو ؟

أجابت بلقيس ببطء :

ـــ أعرف الكثير عنهم

ـــ وماذا تعرفين ؟

ـــ أعرف بأن النخوة والفروسية تأخذ حيزاً واسعاً من حياتهم ومبدأهم الأساسي توقير الكرامة وتمجيد السلب والنهب يتعاركون نهاراً ويتسامرون ويعشقون ليلاً وأعرف بأنهم نبلاء .

رد عليها الأمير :

ـــ النبالة في الصحراء هي نبالة الدم والجنس في حين هي هنا نبالة النقد والمال .

أضافت قائلة :

ـــ وأسمع عنهم أيضاً أنهم مقاتلون شرفاء .

أجابها بعجلة :

ـ أما الشرف فهو عند البدو ينبت من جفنات السيوف وحمحمة الجياد الشموسة ، وينشدون متعة الحياة على ظهور جيادهم التي روضوها من أجل إعلان النصر على خصومهم وتجرفهم عواطف متأججة مجنونة ويحركهم هاجس السيادة والسيطرة على الصحراء وهم يعرفون تماماً أن السيادة هي للعزيمة والإرادة القوية ، فهناك من أجل السيادة أنت مرغم على أن تصارع بلا هوادة ولا تستسلم ، إما أن تسيطر أو أن تموت فالقوة مطلب الصحراء وإرادة القتال مفتاحها ، كما أنه عليك أن تعلم كيف تقود وأن تنجو قراراتك من أثر الأوهام والتقديرات الخاطئة وأن ترصد كل ما يدور أمامك ولا تغفل عمن حولك فمع شمسها المشتعلة أبداً يستحيل أن تراوغ يجب أن تكون محارباً قوياً .

بينما كانت بلقيس مأسورة بعينيه أنهى كلامه وهو يحاول عبثاً في أن يجبر عينيه على الابتعاد عن عينيها .. ومن أين له أن يلوي بعينيه عن هاتين العينين اللتين تقودانه إلى المجهول العذب .. تصوّر نفسه وهو يُصارع تلك الرغبة الجامحة عصفوراً يتسلّل من نافذة مجهولة ليزقزق بين نهديها المشتعلين ، تصوّر نفسه حزمة من الضوء تُغَسِّلُ ذلك الجسد الذي بدت مفاتنه على الرغم من الثياب التي اعتادت البدويّات أن تخفي مفاتنها بارتدائه .

إنه يريد أن يكسر القمقم مارداً ليفضي بكل ما في قلبه من شوق ، ويطبع على شفتيها قبلة توجز حرائق غابات العالم ، ويحتضنها ،

ويطير إلى جزيرة لم تخلقْ بعدُ.. فمن أين له أن يقتحم ذلك الجسد الذي بدا في خياله عارياً تغطّيه أحلامٌ نسجها بمرارة واشتهاء.

وبينما هو مستغرق في أحلامه الوردية العاصفة، قالت له مبتسمة:

ـــ هل تعرف بأن أحد الحكماء القدماء قال عن الشمس: إنها كتلة من الحجارة المشتعلة؟

ضحك سمهر طويلاً قبل أن يقول:

ـــ ياله من معتوه ذلك الحكيم إني لا أراها إلا خزائن ذهب قال هذا وهو يضحك والتفت نحو خالد محاولاً أن يفك أسر عينيه من عيني بلقيس وسأله:

ـــ ما رأي مضيفي بأهل الصحراء؟

رد خالد بلهجة مرحة:

ـــ أعرف عن حسن البدويات المخضبات بالزينة كخرافات الليل ومكحلات العيون مزججات الحواجب متسربلات بالثياب الفضفاضة الملونة ويفضلن اللون الأحمر كذلك شعورهن التي تتدلى في غدائر مضفورة ومرصعة بالحلي هذا عدا عن الأقراط الثقيلة التي تحملها آذانهن وأسمع كثيراً عن رنات حجول بنات الخدور وغمز العيون الدعج.

تكلمت بلقيس من جديد:

ـــ نعم سمعت أن البدويات يعشقن اللون الأحمر.

أجابها سمهر :

ـــ كيف لا واللون الأحمر هو لون الدم ولون النار ولون القلب ولون العشق وأجمل الزهر لونه أحمر إنه نفحة الحياة .

انتهت السهرة وعاد الأمير إلى غرفته وهو يخاطب قلبه :

ـــ أيا قلبي كيف لي أن أستوقفك وقد مضيت بدرب هوى جديد ؟ ألا تبالي بما سفحته من آلام ؟ انظروا كيف يطأطيء القلب هامته أمام حبيب جديد يقف على عتبته ويود أن يلج بابه ويختلس لبابه وهاهي ذي وردة تنشد لها مكاناً بين رماد قلبه .

❀ ❀

18

ويحك ارنُ لما هو آت لا إلى ما كان لا تخشَ ما أضمرته الأيام حارب لأجل رفاهة روحك اسحق أسوار السعادة المنيعة ارفع مزاليج بوابات العشق فالحب هو الحق الكامن في القلب وبذرة الحب تنبض أبداً تحت القلب .

❀

في اليوم التالي وبينما الأمير في الحديقة يحتسي القهوة مع خالد والسيد سبنسر ، جاء عبدون يعلن أن غالب بك جاء يزورهما فاستأذن كل من خالد والسيد سبنسر وذهبا ليستقبلا ضيفهما في حين ظل الأمير في مكانه مستمتعاً بجمال المكان الذي حوله متمنياً بينه وبين نفسه أن يراها .. وهذا ما كان فسرعان ما ظهرت ترتدي ثوباً أحمر زين صدره بياقوتة تومض بلون أحمر رائع وتحمل بيدها آلة موسيقية لم يسبق للأمير أن رأى مثلها وكانت تلف حول شعرها منديلاً يتناوب فيه اللون الأحمر مع الأسود وتتدلى منه حلقات ذهبية تتصل ببعضها بعضاً .

حيّته ووضعت الآلة التي كانت تحملها جانباً وجلست قبالته تسأله عن جرحه :

ــ كيف حال جرحك ؟

أجابها سمهر من دون أن يبعد عينيه عن عينيها :

ــ بإذن الله سيبرأ قريباً .

ــ هل ستغادرنا حين يبرأ ؟

ــ لابد من ذلك .. وهل هذا أمر يهمك ؟

لم تجبه بل بقيت صامتة تعبث بالياقوتة التي كانت تتوضع على الجهة اليسرى من صدرها ، فوق القلب .

بادر سمهر بالكلام :

ــ إن ياقوتتك تليق بك كثيراً .

ــ هل يعجبك الياقوت الأحمر ؟

ــ كيف لا ففيه حرارة القلب ، وذلك الضياء الجميل الذي يترقرق بأعماقه إنه يشف ويبرق على نحو مؤثر ، وأجمل ما فيه ذلك الإشراق الداخلي الذي يحار المرء بمصدره .

ــ هل عشقت يوماً ؟

ــ وهل وجدت يوماً الزهرة التي لم تعرف الندى ؟

صمت قليلاً ثم تابع يقول وبنبرة صوته حشرجة تنم عن ألم يدفنه :

ــ لدي كثير من الأشياء التي أريد أن أنساها ولدي ذاكرة ملأى بصور أودُّ من الزمان أن يغشاها .

ــ أوقن بأنك كنت تحب زوجتك التي ماتت .

تأوه قلبه بعنف وأجابها :

ــ كثيراً .

وكأنها ندمت على سؤالها الأخير نهضت قائلة :

ــ ما رأيك بأن أصطحبك لترى اللوحات الفسيفسائية التي تزين الجانب الآخر من حديقتنا .

نهض سمهر موافقاً وتبعها من دون أن يفقه ما معنى اللوحات الفسيفسائية .

عبرا مسالك طويلة تحف بها أشجار الدفلى وأشجار أخرى فقدت أوراقها وبعد قليل كانا يقفان في مواجهة جدارين تغطيهما صور

ملونة وأمامهما بحرة مستديرة سددت عليها الشمس أشعتها فبدت كفيروزة اشتد أوار زرقتها .

كانت إحدى الصور تمثل أيلاً يلتفت إلى الوراء جافلاً وأيلاً آخر صريعاً قد نفذ سهم في عنقه ثم صياد يصوب سهماً نحو أيائل أخرى .

واللوحة الثانية كانت تمثل شاباً وفتاة ينظر كل منهما إلى الآخر وقد تضافرت نظراتهما كما تتضافر الأغصان مع الأوراد . أسرت هذه الصورة كل انتباه الأمير .

قالت بلقيس التي لاحظت إعجابه بها وقد خمنت أي شعور خامره :

ــ الفنان قادر على أن يعطي مسحة من البقاء والخلود على لحظة لا تنسى ، لحظة جميلة لكنها عابرة وزائلة وهو بأنامله يتيح لكل لحظة جميلة فرصة أن تعيش .

وبينما كانت نظرات عينيها تذوب بعينيه سألت :

ــ هل تعجبك دمشق ؟

رغم أنه لم يتوقع هذا السؤال ولم يدرك ما تريد من رواء ذلك فقد أجابها :

ــ دمشق إنها من أحلى المدن التي دخلتها فهي دائماً متدثرة بالحسن والجمال وهنالك شيء خاص يميزها بالنسبة لي .

ــ ما هو ؟

ــ إنه الطهر والوقار الذي يلفها .. لكنها في النهاية مدينة مثل حلب وحماة وبغداد فهي مدينة بطرقات محددة تجبرك على الانعطاف يميناً أو يساراً في حين نحن في الصحراء لا نعرف الطرق التي تقيد خطا خيولنا هذا عدا عن حاراتها الضيقة فعندما يسير المرء فيها فإنه مجبر على أن يسير بتكاسل وإن تكلم، تكلم بصوت منخفض إن ضحك فإنه يضحك بتحفظ .. فيها بيوت جميلة لكنها لا تتغير فالمرء هنا قد يولد ويموت في البيت نفسه، وأكثر ما يسوءني في المدن رؤية الأتراك الذين يتبخترون ويتكلمون بقدر كبير من الفخفخة الفارغة والتبجح الأجوف. آه ليتك ترينهم كم هم جبناء حينما يتجولون في الصحراء طبعاً هذا في حالات نادرة وهم إن تجولوا فيها يكونون بحملة عسكرية ترافقهم المدافع والأسلحة ورغم ذلك يتلفتون حولهم كالكلاب التي تجبر على دخول أدغال السباع.

ــ إذاً الصحراء أجمل!

ــ آه الصحراء فردوس الشمس وجنة توهجها الراقص ويا روعة سرابها اللألاء وكأنه قوافل من فضة.

ــ إنك ولابد تنحاز إليها.

ــ إني أنحاز إلى المكان الأكثر حرية، والصحراء إن الحرية فيها مقيمة بين حناياها أبداً ومسكوبة على ثراها المصقول طولاً وعرضاً في حين هنا لا أرى أثراً للحرية إلا على أجنحة الحمائم التي تحلق بسمائكم.

ــ أجدك لا ترى مكاناً أجمل منها.

ــ بلى فكل جمال في هذه الدنيا أراه في البيداء مأسوراً من بحة الربابة وتنهداتها التائهة في البراري لشذا القهوة المرة وتحليق الصقور الحرة

ومشية الإبل المتأنية وشدو القطا وعدو الغزلان بمرابع لهواها والنجوم الساهرة وطيوف الشهبان المارقة . وفتون قمرها السادر وهدأة فجرها الساحر .

ــ جعلتني أتوق إلى رؤيتها .

ــ وألا يروقك سكناها ؟

صمتت ولم ترد على سؤال الأمير لها في حين هو بقي محدقاً بها يؤكد لها بأنه يعني ما يقوله .

وحين همّ بمغادرة المكان التفت إليها وقال بصوت عالٍ :

ــ كم يسعدني أن يروق لك سكنى الصحراء . قال هذا وتركها غارقة في أفكار كثيرة وهو انبرى يحادث نفسه قائلاً : أيا قلبي الذي ما برح حياً وبعناد أراك عازماً على الخفقان .



١٩

هو ذا الزمان صاحب اللحية الوقورة
يثير صخب الماضي الذي يستجير به
الحاضر كظبي حائر تاه عن مورده .



وفي ذلك اليوم نفسه وبينما سمهر يسلك الطريق المؤدي إلى غرفته مر من أمام باب ذي مصراعين حيث الغرفة التي رأى على جدرانها السيف وقناع الصقر وهذه المرة تذكر تماماً أين رآهما فقد كانا في الماضي ملكاً لأبيه وفقدا في أثناء المعركة التي انتصر فيها الوهبان عليهم وفقدوا عطفتهم التي كانت عمته بلقيس فتاتها .

لم يكمل سمهر طريقه إلى غرفته بل لفوره طلب من عبدون أن يقوده إلى سيده الذي كان لتوه قد ودع ضيفه .

قال سمهر متسائلاً :

ــ ذلك القناع والسيف من أين لك بهما ؟

رد خالد باستغراب

ــ أي قناع وأي سيف ؟

ــ قناع الصقر ذو العقيقة والفيروزتين والسيف المعلق إلى جواره .

ــ لماذا هذا السؤال ؟

ــ إني أعرف من هو صاحبهما الحقيقي وبلهجة التحدي سأله خالد :

ــ من هو ؟

ــ إنهما ملكاً لأبي رحمه الله كانا ضمن الهدايا التي أهداه إياها أحد

أمراء العجم في بلاد الهند والقناع كان على رأس أحد الشواهين الكوهية وذلك السيف كان مع الهدايا أيضاً .

ــ هل أنت واثق ؟

ــ نعم كل الثقة

ــ إذاً جاوبني على سؤالي

ــ أي سؤال ؟

ــ هل كنت تحب عمتك بلقيس ؟

ــ يا لغرابة أمرك مالك ومال عمتي بلقيس ؟

ــ هلّا أجبتني .

ــ إن أسئلتك ملفعة بالأسرار ومع ذلك سأجيبك فبرغم صغر سني آنذاك فقد كانت عمتي هي أول إنسان أفجع به في هذه الحياة ، وبموتها عرفت ما معنى أن يغيب من بيننا إنسان عزيز علينا .

ــ لكن كيف تأكد لكم موتها ؟

ــ قد دفنت في حلب بعد أن ماتت بين يدي طبيب فرنجي كان يتولى العناية بجراحها .

ــ وما كان اسم ذلك الطبيب ؟

ــ وما أدراني ؟ أنت كمن ينثر بوجهي ألغازاً وأحاجي ، إني أحس بسر كبير يجثم وراء شفتيك .

ــ كان اسم ذلك الطبيب الكسندر يردون

ــ أوليس هذا اسمك الفرنجي ؟

ــ بلى

ــ أفصح أرجوك .

ـــ حسناً لك ما تريد عمتك بلقيس لم تمت في حينها بل تزوجها أبي الذي وقع في غرامها وادعى أنها ماتت وأرسل للأمير مجحم ثيابها مع المرأة التي كانت قد كلفت بملازمتها في حلب وبعد ذلك جاء بها إلى دمشق وأنجبتني وبعد سبع سنوات ماتت في أثناء ولادتها شقيقتي بلقيس .

صاح الأمير بصوت ينم عن الذهول :

ـــ يا لأقداري المبجلة وطوال الأيام الماضية وكرمك يثير اضطرابي إذاً الدماء تربطنا ..

ـــ نعم فالراجح هم أخوالي ولم أعلم بذلك إلا منذ ثلاث سنوات قبل أن يتوفى أبي بعام واحد ومن يومها وأنا لا أوفر جهداً من أجل



استطلاع آخر أخبار الراجح وأعترف بأنني لم أجهد كثيراً في ذلك فقد كنت أصادف سيرتك على ألسنة الكثيرين من حولي وبهذا سهل علي أن أعرف أخبارك من دون أن أثير ريبة أحد.

ــ وهل يدري السيد سبنسر بأمر قرابتنا؟

ــ لا ولا أي مخلوق يدري وحاذر فحتى بلقيس لا تعلم شيئاً

ــ ومقابلتنا عند نبع الحمام هل كانت مصادفة؟

ــ نعم كانت مصادفة لكنني كنت في طريقي إلى عشيرتك بحجة شراء الخيول وقادنا الحر إلى النبع وبالمصادفة جئت أنت وأصدقاؤك. إليه وكان لقاؤنا الذي تذكره جيداً وعندها اكتفيت بما كان من لقائي بك وأكملت طريقي إلى حماة من دون أن أعرج إلى عشيرتكم.

ــ قل لي هل كنت ستجهر بسرك هذا لولا أني سألتك عن القناع والسيف؟

ــ بلى كنت سأبوح لك به يوماً لكن متى لا أدري. بقي الاثنان واقفين قبالة بعضهما بعضاً وكل واحد يتفرس بالآخر قال سمهر بعد صمت:

ــ مذ رأيتك أول مرة وأنا أجهد كي أتذكر من هو الشخص الذي يشبهك رغم أنك أشقر فإنك تحمل من ملامح عمتي وكذلك تشبه جدك الأمير خالد.

ــ ولهذا أصرت أمي على مناداتي بخالد.

ــ إذاً هي من انتقى لك اسم خالد.

ــ نعم رغم أنني أحمل اسم أبي فهي لم تناديني يوماً إلا بخالد.

ــ وبلقيس شقيقتك من سماها بهذا الاسم؟

ـــ والدي هو من سماها فقد آثر أن تحمل الابنة اسم أمها التي دفعت حياتها ثمناً لإنجابها .
ـــ إن القدر الذي زاوج بين دمائنا وأباح لأسرار الماضي أن تنطق إنه لقدر نبيل فلم أنصت يوماً لسر أروع من هذا السر الذي نطقت به لتوك .

في تلك الليلة نفسها وبعد أن خلد الجميع للنوم وبغرفة بلقيس قال خالد بلهجة مؤنبة :
ـــ قد رأيتك حين صحبت الأمير إلى اللوحات الفسيفسائية .
أخفضت بلقيس ناظرتيها في حين تابع خالد كلامه باللهجة نفسها :
ـــ لا تظني أن إعجابك به أمر يخفى علي ، أختاه إنه رجل يستدير حيث أومأت له الشمس أمضى عمره ضائعاً بغبار الغزو والمعارك وهو الآن في دمشق لكن سرعان ما تستدعيه الصحراء إن المدن للبدوي كالقمقم وليس بوسعه أن يحيا فيها فهي تشعره بالانقباض والاكتئاب وعلى نحو مفاجيء تكلمت بصوت متمرد :
ـــ لكنني أمقت كثيراً أن أتخيل نفسي زوجة لذلك الرجل السمين غالب بك .
ـــ علمت بأن شقيقته لآلىء خانم قد زارتك .
ـــ نعم وهي الأخرى سمينة وإذا ما أنجبت أولاداً منه لابد أنهم سيكونون أسمن من أبيهم .
وبلهجة محذرة سألها قائلاً :
ـــ أختاه ما الذي تودين قوله ؟

بقيت بلقيس صامتة في حين اقترب منها خالد ليقول :

ــ إن كنت قد وقعت في غرامه فاعلمي أن الحب في حياة الإنسان ليس إلا فصلاً من فصولها فإن كان الحب هو الربيع فالربيع دائماً يجر وراءه الصيف بحره وقيظه .. هيا أنبئيني ماذا قال لك ؟ بعد تردد طويل تكلمت بتأنٍّ :

ــ سألني إن كان يروق لي أن أسكن الصحراء .

ــ ياله من مشاكس ، ألهذا الحد أسرك هذا الأمير الوافد من أرض لا تتجرع إلّا الوهج الحارق ؟

عادت لصمتها السابق في حين تابع كلامه :

ــ إذاً شقيقتي قد أزمعت أمرها على أن تزف عروساً إلى الصحراء هل تفقهين أنها أرض موغلة في الوحشية .

ــ أفضل بكثير من أن أزف لرجل سمين أو كما يقول عبدون بلهجته المغربية رجل « زنفوح » .

ــ أختاه هذا الرجل الزنفوح لن يغفر لي تزويجي لك بمن هو من ألد أعداء هؤلاء الباشوات وإن فعلت عندها لن أقدر على المكوث في دمشق .

ــ ليس في هذا مرضاة لي .

ــ إذاً ما الذي يرضيك ؟

ــ لا يرضيني أن يكون لك أعداء بسببي

ــ رباه أنت كمن يلوي ذراعي فأنا أيضاً لا يرضيني أن تمضي حياتك مع شخص لا تحبينه .

ــ إن الله أسعفني بفكرة لعلها تكون نافعة .

ـــ هات ما عندك .

ـــ ليس صعباً عليك إذا ما ادعيت أنني مرضت مرضاً قاتلاً انتهى بموتي .

صاح خالد بدهشة :

ـــ رباه يا لتآلب القدر .

ـــ أعرف مدى صعوبة هذا عليك .

قال خالد الذي وقف مذهولاً :

ـــ لا لا أنت لا تعرفين .

ـــ تستطيع رؤيتي متى شئت بل أقدر على زيارتك سراً .

ـــ أرى أن شقيقتي قد خططت لهذا على نحو جيد .

ـــ ليتك تبارك ما خططته

ـــ ما أثقل وطأة قدرك هذا علي ويا لتعنته ويا للفخ الذي نصبه الماضي .

وأكمل مع نفسه يقول : يريد الماضي أن يتشبث بالحاضر إذاً فليكن هذا .



خلِّ عنك الخوف فليس في مكنتنا أن
نقف حيال ما تريده سعادتنا فالسعادة صاحبة
تبجيل أبدي وكل ما نفعله فإننا نبغي من
ورائه سلامة حبات قلوبنا التي لن تكف
عن الاحتجاج إذا ما خالفنا رغائبها .
ويا أيها الأمير إلى معشوقة الشمس امض
وبعد ذلك لست أزيد من القول

❀

بعد أيام بريء جرح الأمير وها هو ذا على بعد أميال شرقي دمشق يعتلي ظهر فرس شهباء وإلى جواره بلقيس على فرس شقراء يرافقهما مناور والعبدان مبارك وحبشان ومربية بلقيس العجوز شكورة وكذلك خالد ومعه خادماه المغربيان المخلصان عبدون وخيرون والفهدة الدهماء سلهاب جاؤوا لوداعهم وما هي إلا ساعات قليلة حتى انطلقت جماعة الأمير نحو الصحراء تعدو خيولهم فوق السهول المعشوشبة والنسائم الندية تلثم وجوههم تتدفق منها الروائح العطرة المستسلمة للتنهدات والشهقات ، وفوقهم سماء زرقاء ازدانت بسحاب أبيض تؤمها أسراب القطا وأمامهم تتعرى الآفاق البعيدة حيث يحلو تحليق الأبصار .

وهاهو ذا الأمير الذي أبى أن يترك قلبه يموت وما إن أبصرته الصحراء حتى حضنت أشعة الشمس المذهبة كي تخط له الطريق وبعد أيام أعلن خالد موت بلقيس بسبب مرض أصابها . في حين عشيرة الراجح تحتفل بزفاف بلقيس للأمير سمهر الجحجاح .

معشوقة الشمس / لينا هويان الحسن . ـ ط٢، مزيدة ومنقحة . ـ دمشق : دار طلاس، ٢٠٠٠ . ـ ١٧٦ص؛ ٢٠سم.

١ ـ ٨١٣,٠٣ ح س ن م ٢ ـ العنوان ٣ ـ الحسن

مكتبة الأسد

رقم الايداع ٢٣٠٣/ ١٢/ ١٩٩٩ رقم الاصدار ٨٠٩

رقم: ٤٥١٦٣
تاريخ: ٢٠ /١٩٩٩/٦



هذه الرواية

هناك على صخرة وقف ذئب وقد ولى ظهره لمشرق الشمس

أيها الذئب لم تطيل النظر إلى حيث تلقي الشمس بسرابها؟

لم لا تتقدم؟ هل هناك ما يخشى؟

اطرح عنك كل خوف وتقدم هل تهاب الدم والجروح؟

هل أضنتك الندوب؟ لم أنت مرتاب؟

ألا يستهويك ما وراء رعش السراب؟

تحرك الآن ولا تتريث.

بهذه الرواية ولجت بوابة الصحراء واستنهضت أسرارها كي تنهض من رمالها.



